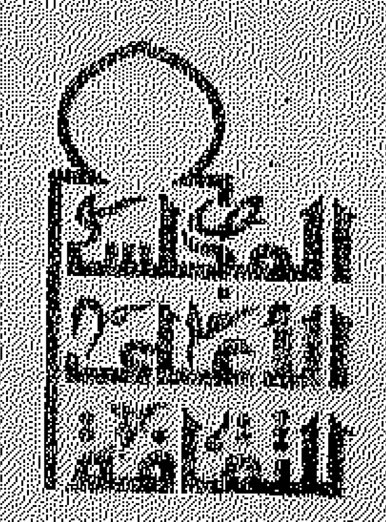


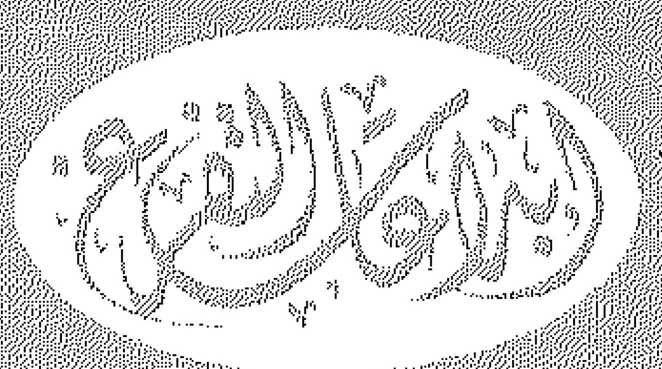
عطشى لماء البحر

قصص قصيرة

محمد إبراهيم مبروك







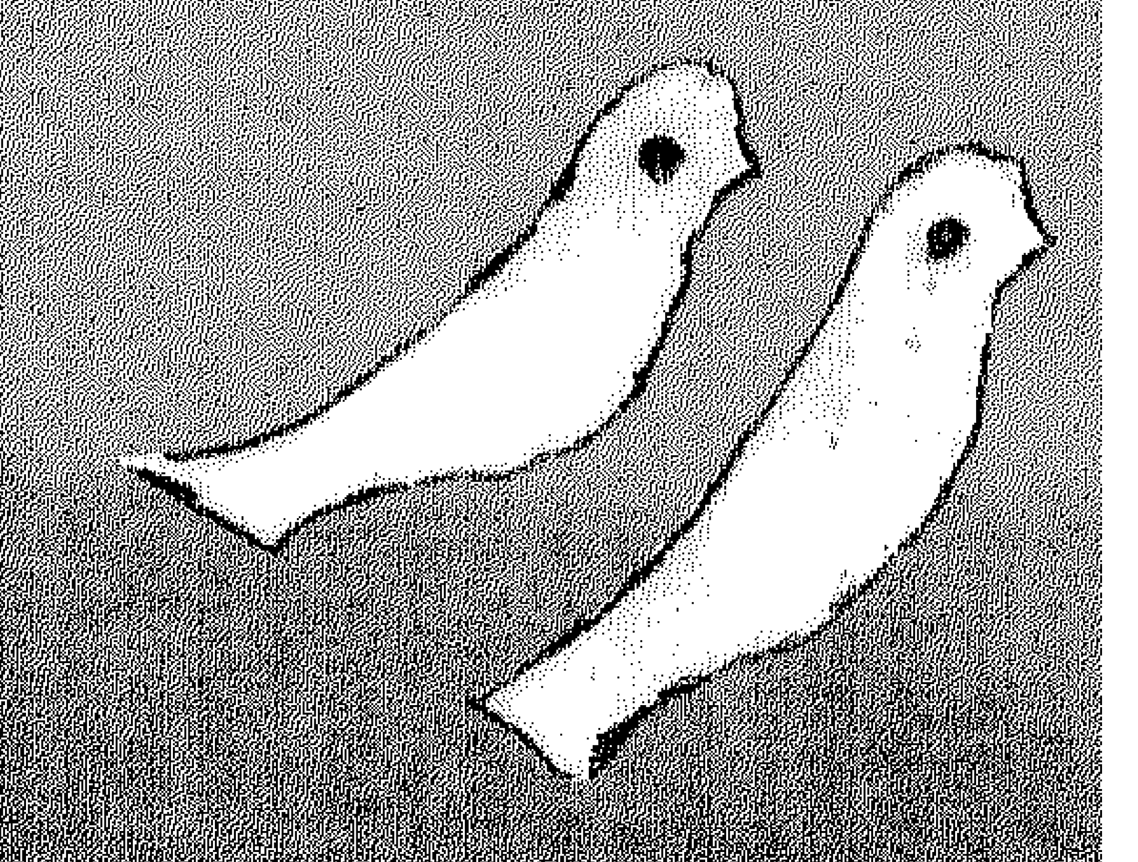
المشرف العام
عماد أبو غازي
المشرف على السلسلة
أمينة زيدان
سكرتير التحرير الفني
هشام نوار

عطشى لماء البحر
محمد إبراهيم مبروك

الطبعة الأولى - ٢٠١٠

المجلس الأعلى للثقافة
١ شارع الجبلاية ، دار الأوبرا ،
القاهرة
الرقم البريدي ١١٢١١
تليفون : ٢٧٣٥٢٣٩٦
فاكس : ٢٧٣٥٨٠٨٤

تصميم الغلاف للفنان
علي دسوقي



المجلس
الأعلى
للثقافة

سلسلة إبداعات التفرغ

[٥٨]



قصص قصيرة

محمد إبراهيم مبروك

المجلس الأعلى للثقافة
إبداعات التفرغ

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

مبروك ، محمد إبراهيم .
عطشى لماء البحر : قصص قصيرة / تأليف : محمد إبراهيم مبروك .
القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ط ١، ٢٠١٠ (سلسلة إبداعات التفرغ)
١٥٦ ص ، ٢٤ سم
١- القصص العربية القصيرة .
(أ) العنوان ٨١٣,٠١

رقم الإيداع ١٨٥٣ / ٢٠١٠
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-479- 815-2
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الأفكار التى تتضمنها إصدارات المجلس الأعلى للثقافة هى اجتهادات أصحابها ، ولا تُعبر بالضرورة عن رأى المجلس .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel. : 27352396 **Fax** : 27358084
www.scc.gov.eg

المحتويات

تقديم

لوكان بمقدورنا تفادى هذا الجحيم؟!

من الإسكندرية، الحلم، حيث تتداح أهواؤها بخفة، حاملة معها عبق البحر برائحة اليود والأسماك الحية، بنواتها الشتائيه وأمطارها التى تهطل بتتابع موقع ليتوقف فجأة وتشرق الشمس مداعبة لها مما يحول سماءها إلى أرجوحة للشمس وللغيوم.

* البحر الذى كنت دائمًا أحج إلى غروب الشمس فيه كل يوم، متأملاً القرص الذهبى الكبير وهو ينزل على حد الأفق لينطفىء رويداً رويداً مانحًا ذهبه لسطح الماء الشاسع، موجات رقيقة من ذهب سائل يتموج ببحة صوت بحر يودع شمسه . البحر الذى دائما قبل أن أصل إليه يسبقه صوته بلغته الغامضة، وصمته الأكثر غموضًا، صوته المؤنس، صمته المعلق. وطيوره التى تطبع على رمال شواطئه آثار اكتمال هجرتها. وكلما تجتاح المدينة رياحه البارده يضمها البحر بحنو بالغ، نافخًا أطرافها دفء قلبه الذى اختلسه واكتنزه لأجلها من شمس النهار.

مدينة تمنح نفسها طواعية للبحر الذى أحبته واختارت أن تستلقى إلى جواره، لائذةً به ليضمها بحنانه وعطاياه، ولا يقنع البحر أبداً ولايكفيه أنها مستلقيةً إلى جواره، فلا يتوقف عن تقبيلها ناثراً قبلاته على كل زهرة من زهور جسدها، وحين تنام المدينة ثم تستيقظ فهى تصحو متهللة مزهوةً بنومها فى حضن بحرها العاشق!

ولشد ما فزعت وأنا أقتلع من حلمى بالإسكندرية، لأستيقظ فى كابوس القاهرة؛ لتظل الإسكندرية تسكننى حلما بوطن ثان مفقود، إذ كانت قريتى : طملاى مركز

منوف مسقط رأسى فى أول يناير ١٩٤٣ وطنى الأول المفقود، وذلك يوم غادرتها وأنا فى الثانية عشرة من عمرى، وما انمحت من ذاكرتى أبداً اللحظة التى تحركت بنا، أنا وأمى وإخوتى الصغار، عربة أتوبيس الكافورى، إذ ألصقت وجهى بزجاج نافذة العربة المجاورة لى وبقيت أتطلع مع حركة العربة إلى حقول طملاى ودورها البعيدة، وطملاى كلها تبتعد وهى تتراجع للخلف بينما تنهمر دموعى بلا توقف. هل كان ذلك شيئاً آخر سوى نبوءة حقيقية بفقدان وطنى الأول؟ (لكن لماذا أبكى الآن واللحظة تحضرنى بعد ٥٥ سنة؟!) والاقتلاع الثانى كان من الإسكندرية، وطنا ثانيا مفقوداً، لكنها ظلت تسكننى حتى الآن، رغم أننى لا أسكنها من أربعين عاماً ماعدا الأعوام من ١٩٧٩ - ١٩٨١ أما القاهرة فلقد كانت دائماً بعد طملاى والإسسكندرية : منفى ! وفى عام ١٩٦٥ غادرت الإسكندرية محملاً بذكريات حياتنا فى سيدى بشر قبلى السكة الحديد فى آخر البيوت المطله على تلال ورمال صحراء المندرة - عندئذ - وعملى فى الصيف بشركة إدفينا، وفى صيف آخر عامل بوابه بشركة البيره إستلا بالإبراهيمية، مصيف ثالث بشتائه فى الجمعية الإستهلاكية بسيدى بشر الترام. كان عملى ضرورة حياة لأسرة فقيره من تسعة أفراد أنا أكبر أبنائها وجئت القاهرة محملاً بذكريات كلية الآداب بالإسكندرية فى القسم الإنجليزى لسنة واحده ثم قسم التاريخ بطلبته فى حجرات الدراسة وممرات القسم التى كان يحلولنا الوقوف فيها متحدثين معاً أو مطلين من نوافذها على فناء الكلية، وهو القسم الذى استلهمت منه، فيما بعد، بطلة قصة نزف صوت صمت نصف طائر " وبطلة قصة مسيح المراسيم المحاله" . وبالطبع كانت عواطفى المهدره لكل واحدة منهما ، فى صمت، ومداراه دائماً، وخجل من يحب من طرف واحد، إذ يبدو أننى كنت أعيش هذا النوع المستحيل من الحب من طرف واحد بشكل منهجى!

وتعرفت فى تلك الفترة على شبان وفتيات من قسم التاريخ، والفلسفة، والاجتماع، واللغة الفرنسية وكنا نتبادل الحديث فى مواد دراساتنا وعلى الأخص ما يتعلق بالأدب، لكن ولاكلمة فى السياسة! (كانت السياسة وقتها حكراً على الاتحاد الاشتراكى، والذى لم أكن عضواً به، وليس ذلك لأننى كنت - ساعتها - ضده، بل

لأننى لم أكن أفهم ما هو عمله بالضبط، فالنظام، ويتجسد فى الرئيس عبد الناصر، واتحاده الاشتراكى كان يقوم بكل ما يلزم.

وعلى أية حال ؛ فلقد كان الأدب هو المجال الوحيد لاهتمامى وبحثى عن مصادر للقراءة وتنمية معارفى به، كنت مشتركًا فى مكتبة كلية الآداب، والمكتبة الأمريكية بالإسكندرية (مكتبة كينيدى)، ومكتبة قصر ثقافة الحرية، ومكتبة البلدية، كنت أقرأ وقتها بنهم لا حد له، وأواظب على حضور أنشطة قصر ثقافة الحرية وعلى الأخص ندوة نادى القصة به، الذى أسسه الكاتب الصحفى فتحى الابيارى، وتعرفت على شبان من جيلى والمهتمين بإبداع القصة والشعر أذكر منهم: كاميليا جلال (ابنة المترجم محمد عبد المنعم جلال، والقاص رجب سعد السيد، ومصطفى حامد، ومحمود عوض عبد العال، وعبد الفتاح منصور، وعبد العزيز عبد ربه، والسعيد الورقى، والناقد طلعت عفيفى وصديق أكبر منى وهو أول قصاص مجدد تعرفت عليه فى مكتبة مدرسة العروة الوثقى، والذى كان مشرفًا عليها إلى جانب عمله كمدرس للغة الفرنسية، وهو الأستاذ القاص: محمد الصاوى الذى التحق معى بقسم التاريخ بعد حصولى على الثانوية من العروة الوثقى. كما تعرفت على صديقين أكبر سنا منى هما : زكريا شعبان، وأحمد حسنين.

كان نادى القصة أيامها نشطا يشارك فى الإسهام وإدارة الندوات به الدكتور على نور والدكتور مصطفى هداره، والدكتور محمد زكى العشماوى، والدكتور حسن ظاظا والدكتور حلمى مرزوق وكان يستضيف أعلامًا من القاهرة مثل محمود تيمور، ود. محمد مندور وزوجته الشاعرة ملك عبد العزيز وآخرين.

كما تعرفت على عديد من الشعراء منهم الشباب مثل محمد رفيق خليل، والسيد الشرنوبى وكان ناقدًا واعدا جداً إلى جانب شعره) ووفاء السنديونى ومن الشعراء الكبار:

عبد العليم القبانى، ومحمود العتريس، وأحمد السمره، وعبد المنعم الأنصارى وتعرفت أيامها على شاعر شاب لم يكن معروفًا وقتها هو أمل دنقل، الذى سمعت فى

القصر قصيدة له فعزمته على شاى، وبعد خروجنا معًا من القصر وبينما كنا نتمشى على كورنيش البحر أسمعنى قصائد عديدة له نالت إعجابى ودهشتى وعبرت له عن ذلك وقلت له أننى أتنبأ له بأنه سيكون أبرز شاعر فى مصر خلال السنوات العشر القادمة، ومن المدهش أن هذه النبوءة تحققت بالفعل وصار أمل دنقل إلى جانب أحمد عبد المعطى حجازى وصلاح عبد الصبور من أكثر وأكبر الأصوات الشعرية حضوراً وتألقًا !

ومن الإسكندرية كنت بالإضافة إلى قراءاتى من الأدب العالمى المترجم، وأبرزها كانت أعمال دستويفسكى وتشيكوف وجوركى، ووليم فوكنر وفينزجيرالد وهمنموای، وكامى وستارتر، وأخرين كنت أقرأ أعمال يوسف إدريس وبعض أعمال نجيب محفوظ، ويحيى حقى، وأتابع بشغف أعمال جيلى، وما ينشر لهم فى مجلة المجلة، ومجلة الهلال، والكاتب، ومجل القصة، وإذاعة البرنامج الثانى، وأرصد أى إضافة لأى منهم فى مجال القصة القصيرة.

وهكذا تم شتلى فى مشتل الإسكندرية كمشروع قاص، قبل أن تتفتح أول قصة لى : «نزف صوت صمت نصف طائر" ويحتفى بها وينشرها يحيى حقى فى مجلة المجلة عدد أكتوبر ١٩٦٦ .

قدمت إلى القاهرة، شابا فى الثانية والعشرين، متطلعًا إلى أن يحقق فى الأدب حلمًا فقده فى الواقع، وأن يجد لهذا الحلم مكانًا فى هذه المدينة السوق. بالرغم من أنه كان ومايزال يحتقر كل ما يتصل بالسوق من سوقيه. ولذلك فعندما أتاها حالمًا بمكان يخص حلمه هو، وفق تكوينه، وقيمه، أتاها متعاليًا ومعاديًا لكل قوانين السوق السائدة، حالمًا حلمًا مغايراً للكثير مما وجد بها، ربما قرأ ما قرأوه، لكنه يكتب ما لم يكتبوه، لا لحضتها ولا الآن.

كان من ضمن ما سأله لى يحيى حقى. ما الذى تقرأه لتكتب كتابتك هذه؟

قلت له: أنا ببساطه أقرأ ما يقرأه الجميع، فنحن مثل أشجار الفاكهة فى أية

حديقة نستمد غذاءنا من نور الشمس نفسها، ونرتوى من ماء القنوات نفسها، ونمتص من الأرض مابها من أملاح ومعادن وعناصر الخصوبة، لكن كل شجرة تعطى فاكهتها هى، وهذا ما أفعله!

لقد آمنت، وأنا فى سن غض، بأن المكان الذى أتمناه لنفسى لن يوجد وسط هذا الزحام إلا بأن أكون أنا نفسى، وبأن تكون لكتابتى ملامحى وأحوالى، بصمتي وسماتى، وليس بها أثر لأى إبداعات أخرى، حتى لو كنت معجبًا بها.

ولهذا الإيمان الذى صار جزءًا من كيانى، وتجذر أكثر من الزمن، قصة طريفة بالغة الأهمية، ربما تفسر هذا الاهتمام الذى يبلغ حد الهوس والغرام بلغتى المختلفة عن جيلى كله، وعمن سبقونى:

ففى سن البلوغ، وكنت طالبًا بالمدرسة السعيدية الثانوية، وقعت فى غرام طالبة بمدرسة الجيزة الثانوية، أذكرها وهى تهل علينا بالزى المدرسى الرمادى، وشمس وجهها وتاج شعرها وأنا أنتظر على محطة أتوبيس الطالبيه ومعى صديقى فيصل عبد الرحمن، كانت مشاعرى صاخبه، وحارقه، أشعلتها المراهقة وأشعار قيس بن الملوح وأغانى عبد الحليم حافظ التى تسرى إلىّ فى الليل حيث كنا نقيم فى مزرعة دواجن بين أشجار فاكهة ونخيل، ويحمل النسيم صوت عبد الحليم من أوبرج الأهرام فيزيد النار أستعارًا، ويقيم حاجزًا بينى وبينها خجل ريفى لم يقع فى هذه الورطه من قبل، فلا يجرؤ أن ينظر إليها مباشرة، فكان ذلك بالنسبة لى مثل عدم القدرة على التحديق فى الشمس، ومع الأيام كانت بداخلى براكين لا تهدأ، ولا تجد منفذًا للخروج، وداخل هذه الأسوار لم يكن أمامى سوى الاستعانة بكتابة يومياتى، وكلها تنصب على مشاعرى، ورؤيتى أو عدم رؤيتى لصاحبة حبى المستحيل.

ولما كان كاتبى المفضل أيامها هو طه حسين، الذى كنت أستعير رواياته وكتبه من مكتبة المدرسة السعيدية، ولأنى كنت مغرمًا بأسلوبه، فلقد كتبت – دون أن أعى – بلغة طه حسين كراسة كاملة بجلدة حمراء وعليها قلب يحتضن اسمها:

وانتقلنا فجأة من الطالبية بالجيزة إلى سيدى بشر قبلى بالإسكندرية. وبالطبع لم أر المحبوبه، ولم أظفر بها أبداً من أيامها، وعندما راودنى الحنين لها، بحثت عنها فى كراسة اليوميات التى تحمل اسمها، وما أن قلبت عدة صفحات حتى صعقت بل كدت أجن، إذ اكتشفت فجأة، أن المحبوبة لا توجد فى الكراسة، ولا مشاعرى ولا لغة تخصنى، والذى كان موجوداً هو فقط: طه حسين!

وإثر هذا الضياع الفادح، اقتنعت تماماً أيامها، بسبب الثمن الغالى الذى دفعته، بألا أكتب إلا بلغة تخصنى أنا، وليس أى شخص آخر، حتى تحتفظ هذه اللغة بما أودعه فيها من الأحوال والتجارب والمشاعر والمعانى، وهكذا دخلت دائماً فى تصارع مع اللغة التى أكتب بها حتى تتحول من لغة عامة، موروثة، وغالبًا مستهلكه، من استخدام الأخرين لها، إلى لغة تخصنى وحدى، لأتيقن من أن الكاتب الذى لا تتقدمه لغته ؛ لا حضور حقيقى له.

لهذا السبب، ولأسباب أخرى، تخص تكوينى، ورؤاى، لم أكتب مثل أحد، حتى عناوينى كانت غريبة، وكان رأيى، وما يزال، أن العنوان لابد وبالضروره أن يكون من نسيج العمل، وبالتالى، فالعنوان الذى يمكن استبداله بأى عنوان آخر، ليس عنوانا وقد قلت ذلك ليحيى حقى عندما سألنى قلقًا ربما من آراء سمعها تعليقًا على عنوان القصة: ألا يمكن تغيير العنوان؟

هززت رأسى بالنفى، متمسكًا بالعنوان، فقال لى : حتى لو تسبب ذلك فى أننا لا نستطيع نشر القصة؟ قلت له: حتى لو كان ذلك سبباً فى عدم نشر القصة. هز رأسه وقال : إذا سأ نشرها لك!

وفى لقاء آخر قال لى يحيى حقى معتذراً عن نشر جحيم أبد الرحم (نشرها لى بعد ذلك أدونيس فى مجلة «مواقف» العدد السابع): لماذا يا مبروك لا تكتب فى سنك هذه قصص يمكن للناس أن يقرأوها بسهولة، حتى ينتشر اسمك وتأخذ مكانك وساعتها يمكنك أن تكتب ما تشاء؟

وكان ردى : وما يدرينا يا أستاذنا أننى عندما أكبر سأكون قادراً على كتابة ما أكتبه الآن ؟ ومن يضمن لى ألا أفسد وأفقد مصداقيتى إذا ما بدأت تنازلاتى من الآن، وهذا إذا استطعت.أنا لا أكتب ما يتفق مع متطلبات النشر السائده، إنما أكتب كما أريد وأتصور، وما أكتبه ينشر، وإذا لم ينشر الآن، فسينشر فى يوم ما. وأعتقد أن المبدع الصادق لايساوم، ولا يقايض على إبداعه إبداً.

هذه القصص التى كتبتها، وخرجت فى كتاب بعد ذلك بسنين طويلة (حوالى عشرين عامًا) لم تكن تخرج للنور بالشكل الذى كتبت به وفق تصميم أو إرادة سابقة لوجودها – وإلا أين هذه الإرادة طوال ما يزيد على أربعين عامًا؟! – لقد خرجت للنور بالشكل الذى اتخذته هى، لقد اتخذت شكل فيضان هادر ينفذ من خلال الكتابة بصعوبة مما يجعل القصة تستغرق ما يقرب من أربعة أشهر ، شلالات الكهف الداعر، مثلاً كتب نصفها فى مارس ١٩٦٧ ومر علىَّ عام بكامله فى المعتقل، لم أكتب فيها حرفًا، ثم كتبت نصفها الثانى فى المعتقل قبل خروجى فى أبريل ١٩٦٨) وهذه القصص طالعة من مناطق فى النفس مظلمة ومجهوله، من لا وعى يصخب بما لم أكن أدركه فى عمق وجودى، بين زمنى وأهلى وتاريخ بلدى، وما عرفته ووعيته على سطح وعيى بعد أن تساقط ونزل مترسبًا فى عمق سحيق بعيد عن الإدراك، أشبه بالجزء الدرنى من نباتات البطاطا والبطاطس، والفول السودانى والبنجر واللفت والفجل والجزر. تتكون وتكبر مكتنزة بمحتوياتها الحلوة أو الحريفة تحت سطح الأرض، ولا ترى على السطح مطلقًا، بينما هى تتشكل بداخلنا أحلاما ورؤى، وكوابيس، وتطلع لنا منها وجوه متعددة لشخصيات ربما أكثر وجوداً أو تأثيراً علينا من الذين نعايشهم على سطح الأرض. إن الواقع الأشمل الذى نحياه ليس فقط هذه الأوراق الصفراء الذابلة على السطح، بل تلك الغائصة فى القاع الغنية بحضورها، وكيانها وتجسدها المذهل مما يدفعنا لتصديقها، لأنها فى الحقيقة الأكثر تأثيراً فنيا والأولى بالتصديق. ولذلك فكل ما تشكل بهدف اللغة المتفردة، والأجواء المتفردة، والنمو حتى الاكتمال، هو أقرب للوليد الذى يفاجىء أبويه والأقارب لأنهم لم يتصوروه أبداً قبل ولادته، وإذا بهم، وأمه على وجه التحديد، يتأملون بفضول واندهاش هذا الذى حملته أمه كل هذه الشهور، وعايشت وجوده منذ أول

نبضة قلب، وإيقاع حركته بداخلها، ولم تعرفه أبداً بملامحه التى فاجأها بها، ملامح بالغة الدقة وبكل هذا الجمال الساحر!

هكذا يكون الخلق، فى الكائنات الحية، وفى كل أشكال الإبداع الجمالى: جمال مفاجىء، وجديد، ويحس به دائمًا بفهم أو بدون فهم، ساطع فى جماله المقنع، لم يولد ليشبه أحداً، ولا ليعجب الأخرين، بل ليفجر الدهشة وينتزع الإعجاب رغما عنهم!

هذه القصص يستحيل أن تكون مكتوبه للتسلية، أو التغلب على أوقات الفراغ، أو التلصص على أشياء تخص الأخرين فى كتابات تزعم أنها عنهم، أنها كتابة تثير متعة من نوع خاص، متعة معذبة، إذ هى أصوات معذبه، نازفة، مجروحة، تنزف صوت صمتها على حد سكين مسنون، صاعدة من قلب وجودها، لم تلتفت أبدًا إلى تملق القارىء وإرضائه، ولو أنها لم تتجاهل قارئًا آخر، قارئًا مفترضًا، إذ هو بالضرورة سببًا للكتابة، بل وشاهداً أيضًا، لكنه قارىء خاص، مرهف الحس لابد أن يكون، قادراً على التذوق والتفاعل، والتمييز بحس ذكى بين النص الحى، من لغة حية لها طعم ولون ورائحة، وإيقاع ووهج لاتدع القارىء يفلت من سحرها أبدًا، إذ تسكنه وتنبض بداخله، بأجوائها وأشخاصها، وبين كتابات مصطنعة، سابقة التجهيز عليها يقع حبر كتابة الآخرين، لها من الميوعة ما يجعل النفس تعافها، وتقف عنصراً طارداً للقارىء الذى يمتلك ذوق ورهافة التلقى الرائع.

هذا الذى نعيشه جحيم، نواجهه عندما نبدأ فى محاولة التعبير عنه وهنا يبدأ عذابنا به فى التجسد أقسى بما لا يقاس لوحاولنا تناسيه والهروب المستحيل منه، فالوقوف أمامه يجعله حاضراً ومهاجما لنا بضراوة واللغة التى نحاول مضطرين فى مأزقنا أن نحولها من لغة سابقة علينا، إلى لغة تخصنا وتخص زماننا، بقدر كياننا وأحوالنا، لا تطاوعنا دائمًا، بل عصية فى أغلب الأحوال، فهى قد استعملت، وانتهكت، وأغلبها ممسوحة، بل وصارت بعضها خرقًا ممزقة لا تصمد طويلاً أمام ألسنة نيران هذا الجحيم - لكننا لا نملك غير هذه الخيوط البائسة، فنحاول أن ننسج من غزلها شباكا نقتنص بها هذه الوحوش الخارجة علينا تهاجمنا من هذا الجحيم. وفى أغلب

الأحوال، تتمزق هذه الشباك الواهيه ونجد أنفسنا عراة وعُزَّلا وجها لوجه أمام هذه الوحوش الجهنمية التى تنشب مخالبها فى أرواحنا.

هذه المعركة اليائسة فى صراع غير متكافىء دائمًا هى معركة كل مبدع جدير بهذه التسمية، إذ أن كل المبدعين الكبار فى تاريخ الأدب خاضوا معارك ضارية مع اللغة، تلك الأداة الأقرب إلى شبكة رقيقة لاصطياد الفراشات، والتى عليك وأنت تفاجأ بها من عالمك الداخلى والخارجى أن تلجأ إليها لحمايتك من أسود ونمور، وذئاب وثعالب، وأفاعى سامه، كلها تهاجمك، وكلها قاتلة !

هل حاولت أن أحمل لغتى فوق ما تتحمل، لأن ما أحتمله أنا هو أكثر مما أحتمل، وأملت منها أكثر مما هى معدة له؟ فاللغة التى ورثناها: مجرده، تحمل بالكاد بعض آثار من سبقونا، وما من أحد منهم يشبه أحدًا من زماننا، لذا، كان على أن أعيد تفكيكها وتركيبها مما قد يلبى ولو بعضا من حاجاتى، لغة أو اجه بها هذا الجحيم الذي انفتحت أبوابه على طوال ما عشته فى صحوى وفى حلمي، محتملا قسوة هذا العالم الجائر، والذى لا قلب له، عالم عديم الرحمة، غريب لا يعرفنا، ولا نستطيع فهمه، إذ أن فهمه صعب، وربما مستحيل، نحن غرباء تحت سلطته، وضمن ضحاياه الذين يعيش على استنزاف حياتهم، ومع مطلع نهار كل يوم نواجهه بلا طمأنينه، ومع حلول كل ليل تطاردنا كوابيسه التى نركض فيها حفاة، عراة، نلتمس اللجوء إلى بيوتنا التى ضاعت منها وتهنا عنها ولا نصل إليها فى الكوابيس أبدًا، فالطريق إليها لا نستطيع تذكره، وما بيننا وبينها بيوت غريبة تسد علينا الطرق التى قد تؤدى إليها، ولا تسمح لنا بالمرور خلالها، فنركض صارخين نستغيث بلاصوت، وما من نجاة، مطاردين، ومحاصرين، ومهددين دائمًا بالهلاك، نلتمس النجاة من لا أحد، ولا وجهة نتوجه إليها، لكننا نركض بلا يأس، وإنما بآمال مبتورة دائمًا، وحتى خلاصنا لا نتخيل الصورة التى يمكن أن يدركنا بها، فهل هناك جحيم أكثر وأقسى من هذا ؟آه .. لو كان من الممكن أن يكون جحيما أقل؟!

لقد عرفت خلال هذا العذاب، أن الذين يصارعون اللغة، ليست اللغة هدفهم، بل هدفهم الصراع والتغلب على هذا الوجود المأساوى باللغة، بنحتها وخلقها من جديد

كأداة تقدر وتليق بأقصى طاقاتها، حتى عجزها، على أن نخوض بها هذا الصراع الدامى الذى يستنزف أرواحنا التى تقدم كقرابين إلى آلهة مجهولة، وفى أفضل الاحتمالات، آلهة مفترضه!

تَقَوُّض ١٩٦٧

لم تكد تمر خمسة أشهر على نشر قصتى الأولى: نزف صوت صمت نصف طائر بمجلة المجلة بالحفاوة التى حظيت بها من يحيى حقى وبجوارها مقالة عنها من صبرى حافظ بمثابة إعلان أدبى عنهما كحدث فى سماء القصه القصيرة بميلاد كاتب شاب وصل بلغته، وبأسلوب المونولوج الداخلى إلى آفاق لم يسمع فيه وقع لقلم مصرى من قبل.

كان ذلك بمثابة انفجار لكاتب يحتل بقصة واحدة مكانه فى طليعة كتاب الستينات بمصر، مما أثار اهتماما واندهاشا وتساؤلا بين المنتديات الأدبية فى القاهرة، بل حتى فى بعض قصور الثقافة فى الأقاليم، وكان فى مقدمة أسباب الجدل: هذا العنوان الغريب وهذه اللغة الجديدة المقلقه والمتسمة بجاذبية محبَّبهْ لم ترد فى كتابات سابقة عليها، كذلك هذا الغموض الذى حكم بقية القصة ولغتها بل حتى عنوانها. وانطرح السؤال : ما الذى وراءه ؟

ولأننا كنا فى زمن استفحال وسيطرة وتسلط أذرع الحكم البوليسى التى تضخمت بشكل سرطانى فى كل ركن من أركان حياتنا، وبكثافة أكثر فى تجمعات المثقفين والكتاب سواء فى الندوات أو المقاهى التى يلتقون فيها وعلى رأس هذه المقاهى، مقهى ريش التى يلتقى فيها كتاب ومثقفون نجيب محفوظ مساء كل يوم جمعة، وكنت أواظب عليها، فربما بدا لهذه الأذرع الأخطبوطية أن هذا الكاتب الغريب والذى ظهر فجأة، ويكتب كتابة غامضه مقلقة تثير التساؤلات، يطرح مسألة خطيرة فى ظل نظام كل شىء واضح تمامًا فيه، ولامجال للغموض ولا للتساؤلات، إلا لو كان وراء ها سر لابد وأن تعرفه. ويبدو أن ذلك أثار شهية هذه الأذرع الأخطبوطية الحاكمه، والتى تحولت بنموها

السرطانى إلى مركز الثقل فى النظام الحاكم، وحولت النظام نفسه إلى زائدة دودية تشقشق طوال النهار والليل بأغانى على رأس بستان الاشتراكية، والعداله، بل والحرية أيضًا.

وأقول فتح شهيتها لأن تعرف بالضبط: من هو هذا الشخص الذى يكتب بشكل غامض فى وطن مستباح لهم ومكشوف كل شبر فيه أمام أعينهم.

وهكذا تم تعقبى إلى أن ذهبت إلى قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة يوم حضر إليها الكاتب الفرنسى الكبير والشهير : جان بول سارتر وجاء للقاء المثقفين المصريين. وصلت متأخرًا وكانت الأبواب قد أغلقت ولسوء حظى ساعتها؛ فرحت بأن وجدت أمامى الصحفى على شلش، وكنت أعرفه إلى حد ما، فسمحوا له بالدخول وأنا فى ذيله، وكان أمامنا فى الطريق إلى أن نجد مقاعد، شخص يدعى على غسال، سعودى، ويعمل بالجامعة العربية، وكان يحضر ندوة رابطة الأدب الحديث، التى يحضرها، لاهتمامه بالشعر التقليدى، وجلسنا متجاورين، في صمت تام، لأن سارتر كان يلقى خطابه بالفرنسية، التى لا أعرفها، وكانوا قد نشروا فى الأهرام أنه سيتم ترجمة لها، ثم بعد ذلك يدور الحوار.

كانت القاعة كلها صامته، ونحن أيضًا، والصوت الوحيد الذى كان يسيطر عليها هو صوت سارتر، وما أن انتهى خطابه حتى انتهت الجلسة وقامت القاعة كلها لتنصرف.

وخرجنا. لم نتبادل فى القاعة كلمة واحدة. وإلى هنا والأمر طبيعى تمامًا إلا أن الأمر لم يكن كذلك فى نظر الأمن. كان مجرد حضورى بهدف المحاضرة هو التهمة التى بها تم اعتقالى وتعليقى كالذبيحة، وتعذيبى وضربى بالكرابيج والعصى، وذلك لأعترف، وسط صرخاتى لماذا ذهبت إلى جامعة القاهرة؟!!! وما الذى تبادلنا الحديث فيه أنا وعلى شلش وعلى غسال، ولماذا أشار لى على غسال إلى المقصورة التى يجلس فيها الرئيس عبد الناصر ؟!!!

وتحول المكتب الفخم بلاظوغلى إلى سلخانة استمر فيها تعذيب لأعترف بدورى فى المؤامرة التى تستهدف حياة الرئيس، لم أعترف بشىء لأنه لم يكن هناك ما أعترف به.

هددونى باغتصاب أمى وقالوا أنهم سجلوا لى كل ما دار فى قاعة جامعة القاهرة ؟؟؟؟ واتضحت لى كل أكاذيبهم وادعاءاتهم، لم يسمعونى كلمة واحدة عما ادعوا أنهم سجلوه وبعد ساعات صعدوا بى والكلابشات فى يدى إلى مسئول كبير سألنى بلهجة مهددة، لماذا ذهبت إلى جامعة القاهرة يا ... أمك؟ ولما لم يكن لدى إجابه سوى أننى ذهبت لرؤية سارتر، رد على بسفاله : سارتر يا ابن ....؟ خذوه للقلعة.

ونزلوابى معصوب العينين بالكلابشات إلى زنزانة تحت مبنى المباحث ورمونى فيها ورأيت من طاقة صغيرة عالية آخر انعكاس لضوء شمس تغرب. وبدأ الظلام يزحف إلى أعلى حوائط الزنزانة، فأحسست بما يحس به شخص وسط ماء ثقيل أسود يعلو إلى أن يصل حتى فمه، فأخذت أصرخ من الرعب ولما لم ينجدنى أحد. إستسلمت وأنا لا أفهم شيئًا وأكاد لا أصدق ما جرى طوال اليوم، وكيف وقعت فى هذه المحنة التى أتعذب بها ولا أدركها.

قضيت الليل الذى لم يكن بحاجة إلى كوابيس، إذ كانت أفظع الكوابيس أعيشها الآن يقظا من ظلمة الزنزانة التى ليس بها سوى الأرضية الخالية، وحلقات حديدية بالحوائط، ولمبة مطفأة وفى اليوم التالى نقلونى فى عربة إلى القلعة. وأدخلونى إلى زنزانة عرفت فيما بعد أنها أمام المكتب الذى يجرون التحقيق فيه مع المعتقلين الجدد. وطوال الوقت كانت الصرخات والبكاء وأصوات السباب تصلنى وتعذبنى حتى شفا الموت، الذى تمنيته، لأنه بالتأكيد خلاص لى بشكل أو بآخر.

وفى الليل، وبعد يومين بدون طعام، جاء وا لى بعيش وزيتون، مما جعل الطعام يجرح حلقى ثم أخذونى بعدها إلى المكتب وبدأ المحقق التحقيق معى وهو ممسك بمسبحه وأمرهم أن يجعلونى أخلع حذائى وعلقونى كالذبيحة ثانية كان الضرب يتوالى على قدمىَّ وأنا لا أملك إلا صراخ اليائس ، بعدها أمرهم أن يتوقفوا ثم أمرنى أن «أتنطط» حتى تزول الآثار المرئية للضرب، ثم أمرهم أن يأخذونى إلى الطرقة التى أمام

الباب وإذا بهم وكانوا حوالى أربعة وبيدهم عصى غليظة ينزلون على ضربًا بالعصى وكلما هربت من أمام أحدهم يتلقفنى آخر..

وهكذا حتى أدخلونى ثانية له.

ولما لم يكن لدى ما أقوله، أشار لهم بأن يأخذونى إلى الزنزاله.

نقلت بعدها إلى الزنزانة رقم ١٠ فى الطرقة المؤدية إلى الحمامات، وأمام عنبر، كانت معتقلة فيه مجموعة من شباب فى التنظيم الطليعى بتهمة أنهم ضد النظام فصاروا ماركسيين!

قضيت فى زنزانتى الانفرادية هذه ٦٥ يومًا بعدها أمروا عددًا كبيرًا منا بالخروج ومعهم حقائبهم أمام الزنازين لأننا سنغادر القلعة، لكن إلى أين؟ لا إجابة"

وحوالى الثانية عشرة ليلاً أخرجونا إلى عربة نقل المساجين وسط حراسة مشددة بالرشاشات وصعدنا إلى العربة، ومن سبق اعتقالهم منا كانوا يتطلعون من الفتحات الضيقة للعربة ليكتشفوا الطريق، وبدا واضحا أنه ليس إفراجًا هذا الذى يجرى، بل هو الانتقال إلى معتقل آخر، وبين الرعب من أن يأخذونا إلى «أبو زعبل» والأمل فى معتقل أقل تعذيبًا، تهلل صوت واحد ثم تهللت العربة كلها بأننا متجهون إلى معتقل طره ويالها من فرحة !

وفى طره تعرفنا على من هم فى هذه (القضية) وكنا حوالى ٢١ شخصًا، وكنت أنا أصغرهم وتعرفت فيهم بالإضافة إلى على شلش الذى أعرفه، على الباقين الذين لا أعرف أحدا منهم، وما أذكره هم: سامى عبد الحميد الجمل (عديل على غسال)، والمفارقة أن على غسال الذى سميت القضية باسمه، وهو الوحيد الذى لم يقبض عليه معنا! وكان بيننا الشاعر كامل أمين، والدكتور عبد المنعم خفاجي، وعبد اللطيف أبو السمح، والشاعر وجدى شبانه ومحمد عبد المقصود ، وكامل السوافيرى ومحمود شاور ربيع، وعم السيد (فوق الثمانين وكان خادمًا فى زاوية يرتادها على غسال) ويوسف حموده (طليعه وفدية) وأخرين غابت أسماؤهم عن ذاكرتى .. وطوال شهور الاعتقال

كان السؤال الوحيد الذى لا يتوقف بيننا جميعا ما هى القضية ، وما هى أسباب اعتقالنا؟ وظل هذا السؤال طوال فترة الاعتقال، وحتى الآن بعد مرور أكثر من ٤٢ سنة – بلا إجابه !

فى معتقل طره، كان هناك حوالى ألفين معتقل بين إخوان مسلمين ، وعدد كبير من رجال الوفد، وكانت تهمتهم أنهم هتفوا فى جنازه "النحاس" لا زعيم بعدك يا نحاس فألقى القبض على «الجنازه» ! ، وكان فى المعتقل أيضا شباب أطباء ومحامون ومهندسون زراعيين ومدرسون ومهنيون من دسوق.

وفي الخامس من يونيو وقعت الكارثة، والتى سميت نكسة"، وبكل فداحتها . ومن شدة الألم والمراره تمنيت لو ظللت العمر كله معتقلاً مقابل ألا تحدث مثل هذه الهزيمة الكارثيه إلا أن الكارثة وقعت مزدوجة: الاعتقال وكارثة وطنى، ولقد تجرعتهما فى كأس واحده !

وبعد أحدعشر شهرًا أفرج عنى فى أول دفعة منا، وقابلنا فى لاظوغلى مسؤل كبير، قال لنا ماحدث حدث، وكل واحد منكم يعرف ما فعله، وعليه ألا يحكى ما جرى لأى شخص، ولو حدث وحكى أحدكم حتى لزوجته فسوف نعرف، وأنتم تعرفون ما يمكن أن نفعله.

سألته: لو سمحت، أنا لم أفعل أى شىء يجعلنى اعتقل ولو لساعة واحده، فلماذا اعتقلت؟ وكان رده ربنا قسم لكم رغيف عيش تأكلوه عندنا !!!

وخرجت وأنا أقلب وجهى على مدى يمتد لأكثر من أربعين عامًا، باحثا بلا جدوى عن معنى للعبث الذى نعيش تحت سطوته.

كانت الضربة قاصمة، أجهزت على زمن إبداعى منذ عام ١٩٦٩ حتى ١٩٧٦ حيث قطع هذا الصمت، قصة حب لم تكتمل، بسبب رهان خاسر على استمرار حب تعرض لفصم قسرى من جانب المحبوبه، لحظتهما طاردتنى فكره متسلطه تدفعنى إلى

الانتحار، ورعبا من تلك المطاردة القاتلة التجأت إلى الكتابة، وبدلا من الانتحار كتبت قصة :

"عطشى لماء البحر بعدها استبد بى الصمت، وحتى الآن.

لقد قطعت الضربة شرايين إبداعى، ولم تبق سوى على شرايين ما تبقى على قيد الحياة منى لمجرد البقاء. وكأننى بمواصلتى الحياة بلا تحقق، أؤكد النبوءة التى تنبأت بها ووصفتها بدقة كاملة فى عنوان القصة الذى عاش لأغيب أنا: "نزف صوت صمت نصف طائر"!

وكان على أن أتحمل الحياة بنصفى الذى بقى بجناح واحد، لا يمكننى مواصلة التحليق به، ومع مرور الزمن خارج فردوسى المفقود، دمر البقاء على الأرض حتى ما بقى من الجناحين، جناحى المبتور، والآخر الذى لم يعد جناحًا!

كان على أن أتحمل هذا الفقد المريع، وما يعصف بى خلال ما يزيد على أربعين عامًا بدءًا من كارثة الوطن منذ يونيو ٦٧ وعلى مدى العقود التى تلتها، وأنا أعانى كارثة وطنى التى لم تبرحنا آثارها أو كارثتى الشخصية بسجن صمت المبدع.

وكان على أن أفر إلى مناخات إبداع أخرى من سجن الصمت هذا بمحاولة فتح ثغرة فى حوائطه، ولقد ساعدنى فى العثور على معول التكسير وفتح الثغرة اكتشافى لنصوص باهرة من أدب أمريكا اللاتينية، بدءًا من عثورى على نسخة مصورة لرواية مترجمة لجابريل جاريثا ماركيز هى أول ما قرأته له وهى : ليس لدى الكولونيل من يكاتبه، والتى اكتشفت فيها عالما محببًا ذكرنى بالقرب والحميمة التى وجدتها فى أعمال كتاب روس عظام مثل دستويفسكى وتشيكوف، وتورجنيف وجوركى وآخرين .. مما دفعنى بحماس لم يتوقف، لتعلم اللغة الاسبانية والتى بتعلمى لها، انعتقت من السجن الذى تحلق فوقه غربان الهزيمة بكتاب سلطتها وبؤسهم الذى لأحد له، لائذًا بالإبداعات السامقة لكتاب أمريكا اللاتينية، والتى فجرت فرحى البالغ بهم، وتنفست الصعداء بعد أن خايلنى الحلم بأن أعايشهم، وأغوص بما أقرأه لهم وأترجم منه فى تيارات محيط أدابهم، لعلتى باكتشاف القارة، أعيد اكتشاف إبداعاتها بحسى الأدبى

الخاص، أستمد من أرض النار ما يبعث بحرارته الدماء حارة لمرة أخرى فى شرايين إبداعى وصاحبتنى أحلامى، التى لم تبرحنى، وإن بدت مستحيله حتى الآن، باستعادة فردوسى المفقود وباستعادة جناحىَّ معًا، بأن ينبتا وينموا، ويمتدا ليشرعا بكامل طولهما فى التحليق نحو سماء فردوسى.

بهذا آمنت، وراهنت، فجست فى دروب أدب القارة، وترجمت ما اخترته من نصوص أحببتها وأحببت كاتبيها وأصدرت وسم السيف، «رقص الطبول» ومجموعة : حين تقطعت الأوصال" للكاتبة المكسيكية أمبار ودابيلا وترجمت «حديقه موحشة» لكاتب إسبانيا العظيم، رامون دل بايى انكلان، وأكملت ترجمة مجموعة القصص الثانية لامبارو ذابيلا :

«أشجار متحجره».

وكما قلت، لقد راهنت، ولم يزل الرهان قائمًا، وإن لم أكسبه حتى الآن.

لكن من يدرى؟ ومتى ؟ فقد تفاجئنى وتواتينى مرة أخرى اللحظة المعجزة، لحظة أن أبعث صاعداً بالجناحين مشرعين للتحليق من رماد الحريق!

محمد إبراهيم مبروك

الإسكندرية – يناير ٢٠١٠

قراءة في
"عطشى لماء البحر"
إبراهيم فتحي

فى الكتابات النقدية الكثيرة عن القصة القصيرة المصرية المعاصرة لانرى النصوص الفنية تشبه أنفسها. فالصور النقدية مغايرة لملامح تلك النصوص. وكان التشابه السطحى بين القصص المعاصرة فى مصر وبين تجارب عالمية ذائعة الصيت منزلقاً سهلًا إلى عقد المقارنات وانتحال درجات من القرابة. ومن الذى لا يستطيع أن يقدم جدولًا "للأساليب الحديثة". "طليعى" مقابل أو فى تجاور مع "التقليدى"، للحيل السردية، وتوصيفات الصنعة؟

ولكن هل تستطيع حقيبة العدد والأدوات، حقيبة المونولوج الداخلى وتيار الشعور، والمجاز والفانتازيا والاليجورى وإيقاع الجملة وإيراد حروف العطف وأسماء الوصل أو حذفها ثم التغريب والتشيئ والعبث إلى آخر محتويات تلك الحقيبة أن تكون جوهر أدبية الأدب ونوعيته المستقلة؟. وهل من المستطاع حينما نلصق بتلك العدد والأدوات بطاقات سجلنا عليها أسماء مواضيع وموضوعات مثل: القطارات والبيوت أو عالم الطفولة أو العقل الباطن أو الاغتراب والإحباط والضياع، ثم نوزعها مجتمعة أو منفردة على كتاب القصة القصيرة أن نبرز العوالم القصصية القائمة بذواتها، وأن نضع أصابعنا على الحساسية الفنية الجديدة التى يزعمون أنها مستقة عن دراما الإنسان فى التاريخ.

لقد كان نصيب محمد إبراهيم مبروك من هذا اللبس نصيباً موفوراً. نراه على سبيل المثال عند الناقدة السوفيتية "فاليريا كير يتشنكو" فى كتاب "بحوث سوفيتية فى الأدب العربى " الصادر عن دار التقدم بموسكو عام ١٩٧٨ . إنها تقول: "طريقة "مبروك" فى الكتابة تشبه كثيراً ما يسميه السرياليون" بالكتابة العفوية "التى هى عبارة عن سيل من اللاشعور"، ورؤى عشوائية غريبة يلدها ذهن هائج محموم. فالكاتب

متجه إلى دخيلة نفسه لا يعبأ إطلاقاً بما حوله. وإن الصور غير المعتادة واللوحات الخيالية المرعبة تتزاحم فى ذهنة فيلتقطها على الورق بسيل عشوائى مواصل.

وتتشابك الآلام والرعب والألم النفسانى الشديد والقنوط الذى لانهاية له ولا فكاك منه إلا بالموت (ص ٣٤٩ –٣٥٠).

والناقدة السوفيتية هنا متضامنة مع الكاتب المصرى "شفيق مقار" الذى كتب مقالة تحليلية عن "مبروك" فى مجلة " الطليعة القاهرية" (أغسطس ١٩٧٢) وعنوان مقاله: "القصة بين الشعور واللاشعور"، وهو يذهب إلى أن أقاصيص "مبروك" فى نزعتها العصرية الخالصة من حيث التعبير تعد نموذجًا لروح العصر، وهو يعجب بها كلحن نقف عنده ولانسأل. ما المقصود.

ولكن الوقوف عند السطح الظاهرى للنص الأدبى، ثم وصفه وتصنيفه تحت بطاقات حقيبة العدد والأدوات لا ينجو من النزعة التلفيقية. فحسبما تصطدم الصيغ التبسيطية الجاهزة بالنص وتلقى عوائق واضحة تلجأ إلى جمل اعتراضية لا سبيل إلى التوفيق بينها وبين الفكرة الرئيسية، فالناقدة السوفيتية تقول "وبالرغم من الشبه الكبير بالنثر السريالى لا يجوز نعت أقاصيص "محمد إبراهيم مبروك" بالسريالية الصرف ففى كل منها رغم فوضى الصور ظاهرياً أساس منطقى موحد ينظم النص ويضفى عليه مغزى معيناً وصيغة ناجزة، وينعت "شفيق مقار" طريقة"مبروك" الفنية بأنها، سريالية مع وقف التنفيذ" (ص٣٥٢).

فالنقد يصدر الحكم بالسريالية باعتبارها أساسًا، ويسجن النص فيها. وهى أساس للكتابة التلقائية يقوم على الاعتقاد بأن حقيقة جديدة وفنًا جديداً يولدان من اللاوعى.

ومما هو لا عقلى، من الأحلام ومناطق الذهن التى لا يتحكم فيها الإنسان. وهذا الفن فى تداعية الطليق غائص فى الحدس اللاعقلى أو فيما قبل العقلى، يقوم بتطوير تلقائى آلى للأفكار والصور وبتوليدها وتكاثرها دون رقابة واعية. وبعد ذلك لا يجد

الناقد مانعًا من أن يقول قولاً عكسيًا على طول الخط، فليس فوضى الصور إلا أمرًا ظاهريًا أما الأساسى فمنطقى موحد؟؟. ونحن الآن نعرف أن هناك إجابة على السؤال عن المقصود وعن المعنى المعين والصيغة الناجزة. وبطبيعة الحال ليست هناك "سريالية" صرفة أو خالصة عند السرياليين أنفسهم، وقد تلتقى فى العمل الأدبى الواحد إتجاهات متباينة وتتعدد دلالاته، ولكن هذا الالتقاء وهذا التعدد يصبح أساسًا جديدًا للوحدة العضوية للعمل الأدبى. وهى وحدة تنطوى على التناقض الحى. فليست المسألة الرئيسية إدراج العمل تحت مقولة وصفية سطحية جاهزة. وإنزلاقًا على هذا التشخيص السريع المضطرب تصل الناقدة السوفيتية مع "مقار" إلى أن السمة الرئيسية المميزة لـ"مبروك" هى "التركيز الكلى على "أناه" الداخلى وقطع جميع الصلات بالواقع الذى لا يثير فيه غير الرعب والارتياب. بيد أن الكاتب عندما يعزل نفسه عن العالم الخارجى يحرم نفسه من المصدر الذى يغذى قواه الروحية والإبداعية فيصل بالطبع إلى الفراغ ويستنفذ محتواه الداخلى" (ص٣٥٢).

الأنا فى الثياب التنكرية:

حقًا أن علاقة "الذات الفردية" بالعالم الخارجى واللحظة التاريخية ـ والتعارض بين المسار الفردى المعاش للزمن والزمن الموضوعى التاريخى ـ مسألة محورية فى الأدب المعاصر. وهذه العلاقة هى مكمن الإعتام والغموض فى قصص "مبروك". ومنطلق محاولة النقد إضاعتها وإيضاحها، وقد رأينا محاولة الناقدة السوفيتية القيام بذلك عن طريق رد المسألة على نحو مباشر واختزالها إلى ما يبدو أنه شفافية الفكر العقلى ووضوحه، أى الذات والموضوع فى ثنائيتهما المعرفية.

ولكن الذات الشعرية فى قصص "مبروك" ـ أى وجهة النظر التى تقوم بالتشكيل والتنظيم ـ لا تقف عند نقطة البدء فى نظرية المعرفة، عند مسألة العلاقة بين ذاتية الوعى وموضوعية العالم. فهى لاتتعلق بفرد باعتباره مجرد كائن منفصل، أو

دائرة مغلقة معزولة، بل تستكشف فيه دوافع تلقائية نحو الازدهار والتكامل المتسق والمشاركة وتفتح الإمكانات الحقة، وإن تكن محاطة بدواعى الاغتراب والانسحاق والتشويه. وبين الوعى الفردى وهذا "العالم الموضوعى"، هناك "حلقة وسيطة" هى التى تحدد بنية الوعى الفردى الذهنية والانفعالية، إنها أشكال العلاقات الإنسانية (سيطرة وإذعان، وأشكال الحياة اليومية وأشكال اللغة. ولكن تلك الأشكال التى تصوغ الذات والوعى بالذات قد فقد كل منها فى تلك اللحظة التاريخية تماسكه ووحدته، وأصبح تطورها متفاوتًا لا إستواء فيه. (ونعنى باللحظة التاريخية ملتقى تدهور العلاقات التقليدية، وتعثر النمو الرأسمالى. وانتحال رأسمالية الدولة فى معركة الاستقلال القومى شعارات الاشتراكية وقمع القوى الشعبية ومخاطر التبعية المحدقة).

لذلك نجد عند "مبروك" وغيره من كتاب القصة فى مصر - وربما فى كثير من بلدان العالم الثالث - أن البنية السيكولوجية لوجود الوعى فى العالم ولعلاقاته بالآخرين، تشكلها علاقات بين عناصر متباينة من التاريخى، سواء الاغتراب الغيبى بلغته المتميزة، اليتم والضياع بعد موت الأب "جوبيتر" أو الاغتراب الرأسمالى بلغته المتميزة لغة الامتلاك والتشيؤ. فالطابع السيكولوجى فى خطوطه العامة هو الطابع التاريخى متنكرًا. وفى قصص "مبروك" نجد أن الشروط الداخلية الباطنة للتجربة، لاوقعها الخاص أو كيفها الفردى بطبيعة الحال، لها بنية الاغتراب نفسها، بنية علاقات سيطرة وإذعان، وهى بنية مركبة تضم علاقات التبعية الشخصية الخانقة العتيقة وصنمية السلع والنقود فى آن معًا.

اللحظة التاريخية ولحظة التحقق:

ونرى الذات الفردية فى قصص "مبروك" شخصية واحدة، هى شخصية الشاعر العاشق الطفل رغم أعوامه الثلاثين. وهو ما يزال طفلًا لأنه عاش تاريخه كله فى البحث. فالأطفال (ولايتعلق ذلك بالعمر) وحدهم هم الذين يعانون فى البحث. أما

"الكبار" فلا يبحثون عن شئ لقد وجدوا "حقيقتهم" وواصلوا الموت فى حياة هـى تعاقب حالات من الاستسلام والخضوع لمتطلبات الانتماء إلى طبقات متآكله صدئة، وأصبحت "ذاتيتهم" تكيفًا انقياديًا مع متطلبات النجاح والتسلق التى تبارك "الواقع الموضوعى" للقهر الطبقى والسياسى. والفرد فى عالم "الكبار" يجد المأوى فى عالم من المؤثرات الاصطناعية، وتعى التجربة الفردية نفسها وتكتسب طابعها بلغة الفكر السائد، وتتزايد إشباعات تلك التجربة فقراً، وتتضاءل نماذجها المتخيلة عن التحقق والسعادة، وهى نماذج يتم إنتاجها بالجملة لصور الرضا والحبور، وأنماط وقوالب السلوك العملى والاستجابات السيكولوجية معًا. ووظيفتها عقد مصالحة بين الحياة الداخلية للأفراد وأسس الاستغلال والتطفل، وخلق لغة للشعور والوجدان قائمة على اتساق مصالح العمل والملكية الاستغلالية. وتنكمش بذلك الذات الفردية إلى "دور" مفروض وينقضى العمر فى ارتداء ملابس " الدور" وتمثيله بل وحبه أحيانًا. الكبار يرهنون الروح والشخصية مقابل الرموز الاستهلاكية ورموز المكانة، مقابل أشياء باهظة الثمن على أحدث الصيحات لا تطيقها إلا الصفوة. وأصبح "المثل الأعلى" مستبدلًا فى "حياة ممتعة" بالتقسيط. عربدة الشراء، وحساب فواتير الاستهلاك والتوقعات التافهة والأهداف الرخيصة مهما يكن سعرها عاليًا. أين ذلك النثر الرمادى من شعر الآمال المجنحة، شعر التطور المتسق متعدد الجوانب للشخصية فى فورة معركة متصلة لإقامة أسس جديدة للعلاقة بين الإنسان والإنسان. ولنمط التفكير وحالات الشعور ونماذج الشخصية؟. الشاعر العاشق الطفل يرفض السقوط. ويصرخ رافضًا أن تكون ذاته وشخصيته نواة فى علاقات اجتماعية تقتل الإنسان فى الإنسان، وتجعله دوراً اصطناعيًا مفروضًا، منفصلاً عن منافع الفاعلية الحقة فى تلقائية، مغتربًا عن انفعالاته الحميمة، مبعداً عن بواعثه وقدراته على اتخاذ مواقف شخصية خاصة، غارقًا فى استجابة سلبية تصدر عن كائن بلا ملامح، فقد الفردية الغنية.

إن انعزال "الفرد" فى قصص "مبروك" شكل من أشكال الانقسام الاجتماعى. وليس اختياراً فنيًا أو موقفًا إيديولوجيا بل أن الحياة النفسية للشاعر العاشق الطفل فى قصصه بعيدة عن أن تكون مساحة داخلية غائمة الحدود، وعن أن تكون ذائبة فى

دوامات من فتات التجارب المهمشة. أن هذه الحياة النفسية ليست عنده سيولة بلا شكل، فهى فى مدها وجذرها ذات إيقاع منتظم، وتفيض وتنحسر حول نواة أو مركز شخصى وفى بنية مترابطة تحكم التداعيات فى نسق واتجاه. وهذا المنطق الداخلى، هذا الإيقاع الحى للزمن الذاتى يقوم على علاقة بين توترين، على علاقة ثُنائية، بين ذكريات براءة وصحو فى حضن الشروق وتوقعات عطش لأشرعة مملوءة بأفق العالم، ورغبة فى أن يكون الفرد هو عين ما يتوهج فى الشمس ويصفو فى الزُرقة يصلصل فى جريان الأنهار ويخفق فى سماء الأجنحة، معانقًا صدور الأمنيات الحية وبين واقع انطفاء وهجران وموت. ولكن أين نجد البراءة والصفاء وألق العثور؟ وأين نجد الخنق والصلب وظلمة اللحد؟ نجدهما فى اللاوعى الهائج المحموم ورؤاه العشوائية؟ أن العلاقة الثُنائية لبنية الشعور، أى مشاعر التعاطف والحب والحنان فى تضادها مع الإحساس بالتنافر والبغضاء والقسوة تعبير يجسد انقسام الواقع الإجتماعى إلى "نحن" و "هم" إلى الفقراء ممثلى العمل والحب والازدهار وإلى مضطهديهم ممثلى التطفل والكراهية والموت.

وندع كلمات "مسيح المراسيم المحالة" تبدد الغموض عن تلك الثُنائية، ثُنائية التحقق والصلب: لم نكن (فى الطفولة) نحس أن الأرض غريبة تحت بطون أقدامنا. كنت أبحث عن واحدة من البنات ذوات الضفائر، واحدة بالذات منهن. أبحث عنها كلما سقط الليل وأجدها حينما أطل فى عينيها. كنت قد أحسست بالليل يأتى ففررت هاربًا من فخذى أمى لأبنى لى معك بيتًا. نصنع من التراب جدرانًا بارزة على الأرض المستوية تتقطع عند جزء منها فيكون باب. ثم نكمل مربعًا من الجدران وبذلك نكون قد صنعنا بيتًا لنا بجوار النهر. أتركك تكنسينَه وتفرُشينَ حصيرًا وهميًا، وتعلقين على الجدران فى الليل مصباحًا وهميًا. والغريب يا عذراء أنه كان يضئ، وإلا فكيف كنت أرى ملامحك الصغيرة بكل دقتها، بل حتى عينيك وحنينهما الأزرق تحت خصل الذهب المهملة على تفاحتيك... وأدعك لبرهة وأذهب خلال النهار إلى الحقل أحرثه وأبذر البذور وأغطيها ثم أنتظر حتى تبيت الشمس لأعود إليك، وتهرعين صوب الباب لتفتحيه بأكمله راغبة فى دخولى بلهفة أم... وعلى كسر الفخار نقتات العشاء ونشبع.

وتظلم الغرفة.. ويقتح كل منا عينيه فى عينى الآخر.. لكنهم داهمونى بالملابس السوداء مالئين الشارع الذى يمر فى بطن الخضرة منتهيًا عند زُرقة السماء الكالحة حيث كانت المقابر ترفع رؤوسها المدببة الجهمة...

(هذا الطفل العاشق الشاعر) صلبوه. ولم يكن له أب. ولمّا لم يجد أبًا أحب بجنون أن يكون له ابن ليَرى أباه فى عينيه. ولكن ذلك المصلوب الذى لم يلد لأنهم عاجلوه بالصلب عشق يومًا ولذا صلبوه. ومن هم الذين صلبوه؟ الذين يحملون قلوب اليهود (يحملون دولارًا بين ضلوعهم) كرهوا أن تعشقه معشوقته. وعندما كانوا يرفلون فى ثيابهم المغسولة (ثياب العمل عليها الطين والعرق) أمامها، ويسمعونها صوت الذهب فى أكياسهم كانت تتأفف من النظر نحوهم. كانوا يسلكون دومًا سلوك الأفاعى الغريبة.

إن العالم المغترب لا يعدو كومة من المحطمين فى الطرقات، وقد يئس الشاعر من إمكان انتشالهم.

وذلك أشد ما كان يصيبه بالاشمئزاز، "كان من الممكن أن ينقلب رأسًا على عقب لمجرد أن يتعرف الإنسان على الإنسان" (قصة مسيح المراسيم المحالة). والظمأ إلى المشاركة والإلتقاء والمصافحة والعناق هو نفس ظمأ الذات إلى أن تجد نفسها. ومع الحبيبة "تلتصق ملامح كل منا وتغوص بملامح الآخر ونتبادل التنفس، وندرك بتغير إيقاع النبض أن كلًا منا بدأ ينساب دافعًا كيانه نحو ذاته فى الآخر" وكذلك "يدك تختنق وحدها. والطوفان يعلو ويتسارع بكل ألق الشموس التى لم تنر العالم من قبل. والبسمة تنبثق وتدب بإيقاع هائل الفوضى والتناسق. والموجات الفرحة تعزف مستحيلا" يوجد. أن الحب يتفجر بمعجزة الخلق. الأضواء تنسكب فى العناق. وترتوى البشرة ونرى ما تحت غبار الأشياء.

ويغوص الشاعر فى أمواه الدهشة ويبدأ طعم العالم فى التغير. المرارة تنحسر عن جدران الحلق. وفى لحظة العثور على طعمك تفجرت الحلاوة فى جسدى كله. القوة تتفجر فى ساعدى وأتحسس جسمى الجديد لأتعرف عليه... وأكتشف أن الجحور

الجبلية التى كانت تحاصرنا فنختنق فيها بيوت ولها نوافذ. وأن الشوارع ليست سراديب نمل وأن الأشياء (يعنى الكائنات البشرية) ذوات الرأس الواحد والأربعة أطراف والتى ترتدى مزقًا مضحكة من النسيج... (والتى كانت عيناتها الفاخرة ملفوفة بإحكام فى المعاطف الجلدية الواقية من المطر والجوارب الصوفية الملونة والأحذية ذات الكعوب المدربة على العزف... والأنثى من هذه الأشياء كانت معطفًا جلديًا، عريًا فارغًا مغطى باللفافات وقناع الألوان وطلاء العينين).

لم تعد أشياء بل انبثقت منها فجأة عيون فأصبحت ترى. وعندما كنت أتأمل أى واحد منهم بدهشة كان هو الآخر يتأمل عينى، ويبادلنى نفس التصرف.. وأصبحت أتأمل بحب غريب إيقاع الخطوات التى تنظر إلى الأمام، والثقة الغريبة فى أن الطريق يخضع للسير.. وقد كان يخيل إلى قبل ذلك أننا لا نسير أبدًا، بل نحن نسقط أقدامنا فى الطريق وبعد ذلك يتولى هو كل شئ، تمامًا كالذى يسقط يديه فى قبضتى شرطى ليقتاده إلى السجن.

ومن الواضح أننا أسرفنا فى إبراز توهج لحظة التحقق الوهمية ونضارتها، فهى لا تحتل إلا مساحة ضئيلة بالقياس إلى امتداد فسيح للانطفاء والتداعى والسقوط والعبث فى قصص "مبروك". ولكن تلك اللحظة الخيالية المفترضة، لحظة الاكتمال والامتلاء التى لا تحتل موقعًا فعليًا فى التسلسل التاريخى ولامكان لها على الأرض، هى المعيار الفكرى والنفسى واللغوى الذى يحكم بها السرد الشعرى على اللحظات الواقعية الأخرى ويقيسها بها. إنها ليست مجرد إمكان للمصالحة بين الوجود الشخصى والعالم بل اقتراح بنموذج جديد لوجود الفرد ومنطق مغاير للعالم.

نمط الفردية التقليدية:

وهذا النموذج الجديد لوجود الفرد ليس اختلافًا تعسفيًا لذهن حالم كما أنه ليس مقصوراً على قصص "مبروك" بل هو نغمة سائدة فى الأدب القصصى المصرى

الحديث. أنه مستلهم من أفاق كانت تتفتح أمام الحركة الوطنية المصرية فى مرحلة انتقالية طويلة المدى.

إن الفردية البورجوازية فى مصر نشأت مع ارتباط المجتمع التقليدى المتفسخ بالسوق العالمية الاستعمارية، ومع تغلغل علاقات التبادل تدريجيًا فى بطء قاتل داخل الاقتصاد الطبيعى والعلاقات العضوية لمجتمعنا القديم. لقد كانت الفردية البورجوازية ترنو إلى حرية إنسانية تُحطم أغلال التخلف والتبعية السياسية للاستعمار، وتلحق بركب "البلاد المتمدينة" على قدم المساواة. ونلمس فى قصة "مبروك" نزف صوت صمت نصف طائر "أصداء ذلك الشاعر القادم من مصر إلى لندن عاصمة الاستعمار البريطانى، يحمل داخله برغم الوعى الذاتى بالفردية، برغم التحرر الشخصى من التبعية للسلطات الموروثة والقدر الأعمى والأوثان الغاشمة، برغم إطلاق سراح الطاقات الفردية فى العمل ومعنى الحياة والحب والفكر من أغلال التبعية الشخصية للملاك والطوائف والجماعات الضيقة، والسلم الطبقى الأبدى بقداسته الوثنية والحكم المطلق ومتون التعمية. ويحلم الشاعر الذى يعى ذاته بلغة تستعير جناحها الآخر من غنائية الفردية البرجوازية فى الغرب إبان صعودها _قبل أن تتحول الحرية الإنسانية المجردة بتفاؤلها وبطولياتها إلى دفاع أيديولوجى عن الامتياز الطبقى_ بتحقيق نموذج للتحقق والسعادة. وفى قلب القصة القصيرة والرواية المصرية نجد دائمًا هذا المطمح إلى تلك الذات الفردية الغنية، وإلى أسلوب حياتها الذى تحرر من العوائق القديمة. فتلك الذات تتوق إلى الإسهام فى صنع أسلوب جديد للحياة لم يكتسب صلابة وتحجراً. وكان ثراء تلك الذات يقاس بلغة السعادة الداخلية والتوافق العام والإنجاز الخارجى. إنه نموذج الشاعر الفنان وإن لم يكن يحمل إنتاجه إلى السوق. أو توأمة رجل الفكر أو العلم أو القانون لا من حيث التخصص المهنى الضيق والنجاح التجارى بل من حيث احتضانه لقضية عامة. وهو على الأغلب مشارك فى الحركة الوطنية أو روافدها وفى صميم حياته قصة حب لا يقرها المجتمع التقليدى. وترتبط بمنطق حياته وقد تكون رمزاً لهذا المنطق. ومن الواضح أن "أوروبا" كانت عاملًا مشتركًا على نحو مباشر أو غير مباشر فى أدبنا المصرى الحديث (الأيام –

عصفور من الشرق – قنديل أم هاشم – وسَيل من القصص والروايات عن خريجى وخريجات المدارس والجامعات الأوروبية) لقد كان "العمل" فى عدد كبير من القصص والروايات المصرية أكبر من خانة المهنة، فالفردية كانت تتوق إلى فاعلية تستغرق فيها بكليتها كإنسان متكامل، إلى نشاط يشترك فيه الجسد والعقل والانفعال على نحو متسق.

ولكن تلك الذات الفردية لم تكن فى علاقة تناحرية مع أنماط الفردية التقليدية رغم الاختلاف والتضاد نتيجة للطابع التاريخى الذى تميز به نمو العلاقات الرأسمالية فى مصر.

لقد كان الفرد فى النمط التقليدى، من زاوية تطوره الذاتى محصوراً فى نسق محدد من الروابط الاجتماعية، عائلى طائفى قروى (أو أقليمى)، ويتمشى ذلك مع وسائل بدائية وإنتاجية ضئيلة، ولم تكن أمامه طريقة للوجود والتكاثر إلا بأن ينصهر انصهاراً كاملاً فى جماعة ضيقة محددة، وفى شروط عمله فى الأرض بالنسبة للكثرة ومع الأرض المحراث والفأس. لقد كانت الأرض هى الشرط المسبق وموضوع العمل ووسيلته وهو عمل غائص مباشرة فى الطبيعة وزمانه هو إيقاع الفصول الدائرى، وأدواته امتدادات مباشرة لأعضاء الإنسان وحركاته الأولية البسيطة، وتبدو له هذه الأدوات كائنات حية، وكل تلك الشروط الإنتاجية "الطبيعية" لا يمتلكها الفرد أو يستحوذ عليها العمل إلا من خلال عضويته فى جماعه "طبيعية" محددة هو جزء منها لا يتجزأ فى الوعى والسلوك يستبطن داخله عراف واجباتها ومحرماتها الكلية القسرية وهو لا ينتسب إلى المجتمع الكبير مباشرة بل عبر جماعته، فى روابط شخصية أهمها روابط "الدم" الأسرية. ومن المؤكد أن تلك الجماعة الطبيعية المتآلفة كانت قناعًا لقهر طبقى وحشى لا يعرف تآلفا ولا انسجاماً، وقد أخذت تلك الجماعة المتآلفة الطبيعية كلها داخلها، وحاولت استئناسها لتصبح لها شكل حاجات الجماعة وإشباعها ولكن الطبيعة كثيراً ما أخذت شكل إحباط تلك الحاجات وشكل التهديد باحتياح الجماعة نفسها، مما أضعف قدرتها فى السيطرة على الطبيعة، وكان هنا موقع الاغتراب فى

المجتمع التقليدى. الفرد يقذف بطاقاته وانفعالاته وقدراته الإنسانية خارجة ـ ويعتبرها مجسدة من عناصر متناثرة من فردية الجماعة المتآلفة وعناصرها متناثرة فى "قوى" الطبيعة المؤلهة. وتصبح الطبيعة تعبيراً عن معان متعالية مفارقة للفردى والجزئى والحسى (وليست أوصافها فى الأدب فى رواية "زينب" مثلًا أو فى "دعاء الكروان" تعبيراً عن خبرة مباشرة بواقع محدد). فالذات الفردية فى نمطها التقليدى ليست ذرة مستقلة منعزلة وكانت العلاقات بين تلك الذرات تتم داخل جماعة محلية شخصية الطابع لا مع تجريد المجتمع الكبير، ولم تكن الروابط الاجتماعية بين الأفراد قد تحولت إلى علاقات بين سلع وأشياء، ولم يكن التقسيم الهائل للعمل والتبادل التجارى قد جعل الشكل السلعى يبتلع الحياة، ويجعل الطيبات والخيرات مقيسة بأرقام سعرها بدلاً من أن تشبع حاجات الإنسان المباشرة (ويجب أن نتذكر حتى لا نستغرق فى حنين سوداوى إلى الماضى أن الفردية البورجوازية إسهام حقيقى باق خلقت ذاتًا جديدة على الرغم من تناقضات تطورها وتراجيديته). إن الفردية التقليدية لم تكن تعى الفرد باعتباره كيانًا مستقلًا بل مقتسماً مع عشيرته (رغم التمايزات) لعالم عضوى من الانفعال المشترك له بنيه قيم متوارثة مقننة، وهى قيم كلية عامة لواقع نهائى ليس التغير فيه إلا معاودة وقوع فى دورات متعاقبة، كتعاقب الفصول. وهذا الانفعال المشترك، لأنه جماعى مشترك يحياه كل فرد وكأن له وجوداً خارجيًا عنه مماثلًا لوجود الطبيعة، فبنية الانفعالات (استمرارها الإيقاعى أو علاقاتها المتقابلة) تسقط على الطبيعة فى نزعة إحيائية. وتبدو الحياة الطبيعية فى شروقها وغروبها وفيضاناتها وانحساراتها ومدها وجزرها وعواصفهاو رعودها وهدأتها وخصبها وجدبها تعبيراً عن الحياة الانفعالية الجماعية التى يقتسمها الفرد مع الجماعة. وكانت التراكيب والأشكال الفنية التقليدية (فى الأدب القصصى الشعبى) تقوم على استعارة كبرى لتصور طبيعى حيوى عن العالم. فالعالم مشكل من قوى حية تكاد أن تشبه الإنسان، لكل منها رغبات ودوافع متصارعة، وتلك القوى موجهة بغائية تفرض اتساقًا وانسجامًا ومصاغة على غرار الفاعليات والمشاعر والإرادات الذاتية المشتركة. ونرى لحظة التحقق الطوبائية فى قصص "مبروك" متخيلة فى نسيج لفظى صوره مستمده

لا من دوافع الإنسان كما تتدفق فى الخبرة البيولوجية أو الفردية بل فى التجربة الانفعالية المشتركة المتلاحمة مع قوى الطبيعة. فالضفائر عند المحبوبة ثلاثة أنهار طفلة نزقة لا تختلط ولا تنتهى إلا عند أسفل الظهر. وأنهارك تصطخب لحظة أن رأتنى. شفتاك منفرجتان تسقياننى الأضواء، والسحابات فى نافذتى الشرقية تخضر حول عالم جديد يتبدى فى الشروق وابتسامتك تشرق دومًا أمام دهشتى. والفرح يظل يهطل فى موجات لا تنقطع... تمدين لى جسرك المتوهج عبر الأمواج الليلية ممتداً من أول ساحل الجدب المتسع ورائى حيث المحارات الفارغة تحت مناقير الطيور الجافة، وعظام الهياكل العارية للطيور على هياكل السمك الميت. ينقلنى الجسر عبر الليل كله إلى استدارتى عينيك وهى مفتوحة على عالم لم يعرف سوى الصحو فى حضن الشروق.

المصالحة :

إن الأدب القصصى فى مصر ظل من حيث اتجاهه الرئيسى حتى الستينات مهتماً اهتماماً حاسماً - ليس هو الوحيد بطبيعة الحال - بمشكلة العلاقة المتداخلة بين نمطين من الفردية. فالاتجاه الذى ميز القصة القصيرة والرواية عن أشكال السرد التقليدية هو اتجاه الذات الفردية البورجوازية. فالسرد الحديث يقوم فى بدايته على افتراض أن نفس الفرد وشخصيته وروحه، أى حياته الداخلية، قطب مقابل للعالم الخارجى، فثمة مركز سيكولوجى فردى مقابل العالم. ومن المعروف أن الاحتفاء بالعمق الانفعالى والنفاذ إلى بواطن الذات الفردية سمة مميزة للأيديولوجية الليبرالية فالوعى والفكر والانفعال، أى الحياة الداخلية، هى مقومات الذات. وهى ملاذ الحرية الباطنة، الحرية الجوهرية للإنسان فى عالم المنافسة والربح الذى نشأ فى أحضان عالم الأوضاع الموروثة فالقصة أصبحت تدور على شواغل القلب البسيطة لا على أفعال أبطال ومردة وفرسان وأمراء، وتعنى بسمات الفرد وخصوصيته بدلاً من النماذج الجماعية التاريخية، وتتركز فى تدفق الانفعالات الشخصية.كما أصبح معيار الحقيقة

الجمالية التجربة الفردية بدلًا من القيم المتوارثة المقننة. فالمعيار الجمالى البورجوازى لا يعتبر التطابق مع الممارسة التقليدية هو أكبر اختبار للحقيقة بل أن ذلك الاختبار متحقق فى الطابع المباشر العميق والصدق الذاتى (أو مع الذات كما يجرى الكليشية النقدى فى مصر) والحساسية والعمق الباطن. ويتمثل ذلك فى نزعة اعترافات غنائية وميل إلى التعبير السيكولوجى المباشر وكأن الانفعال يولد وفى فمه وسائل التعبير عنه. والشخصية هنا وجود فردى واقعى. وتجربة متدفقة تقوم بأفعال جزئية "حُرة" داخل نطاق زمنى معين، زمن الساعة وجدول القطارات وصفارة بدء العمل وانتهائه وهو زمن يسير فى خط مستقيم، وليس زمن الفصول الدائرى الأبدى. الزمن الواحد ذات الطبيعة الواحدة فى الزراعة والحصاد والقيام بأمور البيت أو الشئون الاجتماعية فالعمل لم يكن ينقسم إلى وقت عمل ووقت فراغ. وبالإضافة إلى ذلك فالمقياس الزمنى المحدد قوة أساسية، يقيس زمن العمل ويحدد الأجر ويقيس كل إنجاز وكل واقعة وهو أساس لتصور درامى سببى فى بناء حبكة القصة أو الرواية، وذلك فى مقابل المعانى والماهيات القصوى الأبدية، المستقلة عن السير الجزئى للزمان فى التصور التقليدى فالصراعات الفردية الاجتماعية كونية دائمة الحضور تدور فى نظام ثابت متناغم تنتمى أسسه إلى جميع الأزمان.

وفى بدايات السرد القصصى الحديث فى مصر كانت محاولات المصالحة بين الذات الفردية الحرة وقيم الجماعة المتآلفة نغمة أساسية لا تخطئها الأذن. فالأيدلوجية البورجوازية فى مصر فى قيادتها لحركة التحرر الوطنى لم تكن مسكنًا مقصورًا على أفراد طبقة واحدة، بل حاولت إدماج الطبقات الشعبية فى تصورها للعالم.

وقد نجحت فى أن تربط داخل تصورها رؤى مختلفة كانت موجودة لدى الطبقات الشعبية المنتمية إلى أنماط تاريخية قديمة مثل الفلاحين والحرفيين. واستطاع النمط البورجوازى للفردية أن يمتص امتصاصًا جزئيًا بعض مضامين النمط التقليدى وأن يقوم بتحييدها وتحويل التناحر إلى اختلاف بسيط.

الحساسية الجديدة:

ولكن فى الستينات بدأت الصورة فى التغير. وأصبح بسطاء الناس الذين يدار الحكم باسمهم مبعدين عن المشاركة فى صنع مصيرهم. وكان الجزء من الحركة الوطنية الذى انفرد بالسلطة ويتحدث باسم الطبقات المتآلفة يهشم تماسك الطبقات الشعبية ليحولها إلى أفراد متناثرين، وأنفار فى طابوره الواحد. وليس هنا مجال الإفاضة فى ذلك وقد قلنا فى مجال آخر أن الاغتراب فى قلب واقع كان قبل ذلك وعداً بالتحقق وتحت سياط قوى كانت قبل ذلك أملًا ووعداً بالتحقق جعل تناول الكتاب الذين يطابقون بين أنفسهم وبين بسطاء الناس يتم وفقًا لمصطلحات ومفهومات غير سياسية على نحو مباشر. إنه وقت لم تكن فيه الثورة ممكنة بل كانت مجرد مواصلة "الحياة" مشكلة مضنية، وكان كتاب الهتاف والتصفيق والجرارات ملفوفة القوام والنقابات البيروقراطية المعينة وتعاونيات السماسرة وأغنياء الريف قد تحولت السياسة عندهم إلى أعمال إدارية وخطط محسوبة توجه مغامرات التسلق وتجميد الواقع وتزييف صورته. لقد كان فى المسار المتناقض للمسرح الاجتماعى ما يغرى بنزع الطابع التاريخى عنه وقبوله كواقع طبيعى، ولم يعد الواقع كتاريخ تصنعه الإرادات المتآزرة مرئيًا ظاهراً. وكان الاغتراب يمزق الأواصر بين العام والخاص، بين الاجتماعى والفردى بين الفكرى والحسى والوجدانى. وقد عكف كثير من كتاب الستينات على تصوير العلاقات الممزقة بين العالمين الذاتى والتاريخى وعلت صرخاتهم فى وجه محاولات إفراغ الاثنين من المعنى. ولأول مرة تبدد عند كتاب الستينات الوهم الأيديولوجى المبرر تاريخياً، وهم إمكان المصالحة بين الفردية والبورجوازية وفردية الجماعة المتآلفة، وهو الوهم الذى كان سائداً قبلهم والذى أصبح لأول مرة هو الأيدلوجية المعتمدة للاشتراكية الأميرية.

وكانت صرخة "مبروك" فى قصصه صادرة عن حساسية جديدة ترتبط على الرغم من تفردها بحساسية مشتركة فى تيار جديد للكتابة القصصية. ونعنى هنا بالحساسية شيئاً يختلف عن مواضعات الكتابة وعن الأيدلوجية السياسية بل ما

يعنيه رائد الاشتراكية العلمية بها، فالمرء يتعرف على ظاهرة ما بوصفها تجلياً لخصائص الإنسان الجوهرية وبكل حساسيته، وهكذا يتحقق الإنسان داخل العالم الموضوعي، لا في فعل التفكير فحسب بل بكل قواه الحسية.. والانفعالية أيضاً، ولكن قصص "مبروك" جميعًا قصص عن عدم التحقق. إنها تعبر عن حساسية دائرة معينة في الحياة الشعبية تختلف عن دائرة حياة الطبقة العاملة. وتلك الدائرة تعاني اضمحلالًا وتدهوراً. إن أفرادها هم سكان العوالم الوسطى وبالتحديد مستوياتها الدنيا بين القمة والقاع، بين الملكية والعمل. وهم ينتمون إلى أنماط عتيقة وأنماط شديدة العصرية في نفس الوقت. وتاريخهم المعاصر ملتقى تيارين متضادين، تيار يقوض أشكالًا قديمة منها أو يخضعها أو يمحوها وتيار آخر يعيد خلق أشكال جديدة منها وينتج لها أماكن وأدوار ووظائف مستحدثة ثم يهدمها. فلعبة النهاية والبداية دون توقف هي نمط وجودها. ولا تتحدد سيكولوجية تلك الشرائح الوسطى ولا أيديولوجيتها بجوهر دائم يواصل الحفاظ على ماهيته، بل بعلاقاتها المتناقضة بالطبقات الأخرى، وبالمستوى الفعلي للصراع الاجتماعي في اللحظة المعينة، وتلك الشرائح الوسطى تتضمن حضور الطبقات الأخرى داخلها حضوراً سيكولوجيا وأيديولوجيا لأفرادها إنهم يقيمون في منطقة احتدام وذوبان الصراع الاجتماعي، في موقع دوران الأفراد خلال عملية الحراك الاجتماعي هبوطًا وصعوداً بين الأغوار والأعالي، بين القديم والحديث، بين الأسطورة التقليدية للمجتمع الأبوي العضوي والعلاقات المتناسقة في الإنتاج العائلي وبين الأسطورة الحديثة عن الفرد السوبرمان بوعيه السعيد أو المقذوف به إلى عالم الوحدة والضياع. إن أفراد العوالم الوسطى يبدون لأنفسهم محلقين فوق المعركة الاجتماعية ممثلين للشعب والإنسان، للاستمرار التاريخي والحقيقة المحايدة. ولم يكن "مبروك" ينتمي إلى ذلك التيار الذي أدمجته الأيديولوجية المهيمنة، وتمثلته على أساس من تحقيق أهداف جزئية منفصلة لبعض قطاعات الشرائح الوسطى بل كان ينتمي إلى تيار معاكس يواجه الاضمحلال وفقد الحرية وإخفاق الآمال بالجملة. ونمت الحساسية الجديدة عند ممثلي هذا التيار في الفكر والفن على أساس رفض تصور العناق الهادئ بين الطبقات المتناحرة على

درجات سلم وهمى يصعده الأفراد من الأغوار السفلى إلى الأعالى بالجدارة والمواهب، فمهما تتغير وجوه الأفراد الصاعدين (وهم قلة ضئيلة) أو الهابطين يظل التركيب الاجتماعى على حالة. قمة متسلطة وقاع مستكين متساقط. ويرفض السرد القصصى العلاقات القديمة ولا ينطوى على حنين للرجوع إلى انسجامها واتساقها رغم وقدة الحنين إلى انسجام واتساق. ويرفض منطق الحياة اليومية فى اللحظة المعاصرة، فالمعنى الإنسانى الكلى بين مخالب التمزيق والتفتيت، ولم يعد السجن الأيديولوجى للتجربة اليومية الضيقة التى يمارسها الفرد مركزًا لحقيقة العالم أو حقيقة الفرد. إن إنجازات الفردية البورجوازية لم يعد من الممكن الاحتفاظ بها أو تطويرها فى إطار البرجوازية التى أنجبتها، فلابد من إطار آخر فى مجال الحلم، ولابد من البحث عن خلاص. وفى قصة "نزف صوت" ذهب الشاعر المصرى إلى لندن، وهى مدينة مبان حجرية عالية وأضواء ملونة بناها الإنسان وهدم نفسه "فالإنسان سيظل قزمًا طالما هو يبنى خارج نفسه". وقبل أن يصل إلى ذلك كان يحدث حبيبته الإنجليزية بفرح عن أمه وأخيه الصغير والناس الذين ستسعد بهم فى مصر. وكانت تصغى كما لو كانت تسمع بابتسامتها. ويقول لها هذا أخى الصغير فتضحك وتعتصر أصابعه، وفى عينيها تسارعت موجات النيل تمرح بين ضفتى التيمز.الحلم المستحيل فى نطاق العلاقات المعاصرة بين الضوارى الاستعمارية والشعوب باتحاد نمطين من الفردية ومن العجب أن الأستاذ "مقار" فى مقاله النقدى يقتنص كلمات شاردة عن سياقها زاعمًا أن هذا الشاعر فى القصة، يسخر من قادة أساطيل الإمبراطورية البريطانية "قفا الشمس" لأن وجهها الحقيقى كان وحلًا يخوض فى الليالى المهزومة، فانتصاراتهم بالمقياس الإنسانى هزائم لشعوبهم، فالانتصار على إنسان ليس سوى تأكيد الهزيمة". فهو لم يذهب منتقمًا. وحبيبته الإنجليزية أم طفلة، أمله. هى اكتمال وجوده. نصفه الآخر. وعلاقته بها علاقة امتزاج واتحاد متبادل. ولسنا هنا أمام قصة مسرفة فى النزعة العاطفية عن حب صبى غض الإهاب، يثقل الصغائر بمعان ضخمة، ويأخذ مسائل عادية بجدية مأساوية مفرطة تدعو إلى السخرية، فالسرد لا يوحى بقصة عن أفراد فى حياة يومية بل تصور مجازى لصراع محورى

فى الوضع البشرى، بين أشواق الإنسان متواصلة الحلقات وبين منطق معادٍ، وهو تنافر ينتهى فى جميع القصص عند "مبروك" بإحساس عام بالعزلة الخانقة، ما عدا قصة "عطشى لماء البحر" التى كتبت بعد فترة انقطاع طويلة مرت على كتابة القصص السابقة. فما يقدم لنا ليس أجزاء من تجربة يتبع لاحقًا سابقها فى تعاقب سببى، بل نماذج من المعانى المتقاطعة مستقلة عن التعاقب الزمنى والتجاور المكانى فى ترابطها، ولا تتواشج فى وحدة إلا فى آن واحد. فالسرد يقدم لنا صورة كلية تسهم مكوناتها فى تقديم مركب انفعالى فكرى متواقت. فالنهاية مثلًا لا علاقة لها بالحسم وهى لا تُحسم شيئًا وتترك الشخصية فى مكانها الذى التقينا بها فيه منذ البداية.

ومن القول المعاد الكلام عن تغير مواضعات السرد ورفض الحبكة التقليدية القائمة على السببية بين البداية والوسط والنهاية والخروج على تصور الزمن الذى يسير فى خط مستقيم.ولكن ما يجب تأكيده هو أن تلك المواضعات التى نصفها بأنها تقليدية كانت هى السمات الفارقة للقصة القصيرة الحديثة وللرواية بالقياس إلى أشكال السرد القصصى القديمة. وتلك المواضعات قائمة على افتراض أيديولوجى مضمر، هو الزعم بأن "وصف" حياة الأفراد فى واقعها الجزئى اليومى يقدم حقيقة كلية ذات طابع إنسانى اجتماعى عام. وذلك هو نفس الوهم الكامن فى الأيديولوجية "التجريبية" على وجه العموم. "فالقانون" عندها متضمن فى كل ظاهرة جزئية على حدة على نحو ما هى معطاة فى الخبرة الفردية، ويمكن أن يستخلصه منها الفرد الذى قد زود فطريًا بكل الوسائل التى تمكنه من ذلك ويناظر ذلك الوهم وهمًا أساسيًا آخر فى الحياة الاجتماعية، وهو أن يدًا خفية تحقق التناسق بين سببية الأفعال الفردية القائمة على المصلحة الذاتية والسببية الشاملة لتحقيق مصلحة المجتمع الذى يسير دائمًا إلى الأمام. ولكن ما كان وهمًا مبررًا تاريخيًا أصبح الآن أكذوبة رخيصة. وهنا نجد أزمة السرد القصصى، فهو لم يعد تطابقًا حافلاً بالمعنى بين البعد الفردى والبعد الاجتماعى. انفصل الزمن الفردى عن الزمن الاجتماعى، وأصبح من المستحيل التعبير عن مؤسسات وقوى مجتمع ينظم نفسه آليًا وفقًا لجهاز الثمن فى السوق بلغة التحقق الفردى والفعل الحر أو التجربة الشخصية فالفرد سلعة تتحقق فى مكان

مستأجر بزمن مستأجر يعيش حياته بلغة المواصفات القياسية، لأن العواطف أصبحت سلعًا تبادلية أيضًا كما يقال، وثمة بعد ذلك كله قلة ضئيلة تحكم المصير.

ولكن قصص "مبروك" - ويشاركه فى ذلك بعض كتاب القصة المصرية قد تدفع إلى الظن بأنها تحكى حكاية واحدة عن استكشاف وارتياد حالات نفسية عند فرد معزول محاصر فى كهفه السيكولوجى واقف عند أوضاع ساكنة متجمدة وقد تبدو تلك الذات بعناصرها المفككة متجاورة مع ذوات مضمحلة متداعية أخرى، وهى ذوات يتصادف أن تتصادم دون أن تلتقى أبدًا، ويبدو عالمها عالمًا للتشيؤ تحكمه قوى غامضة كأنها طبيعة الكون. فالواقع كالذات قد خلا من الطاقات والقدرات الحية.

إلا أننا فى الحقيقة لا نلتقى بالزى الرسمى الموحد للعدمية المعاصرة، وهو زى من قطعتين ذاتية زائفة وموضوعية زائفة. فالتشابه بين "مبروك" وبين كتاب العدمية ينحصر فى الموضوعات لا فى مبادئ التشكيل. فالاضمحلال والانسحاق والعزلة سمات موجودة فى الواقع الفعلى. وقصص "مبروك" لا تقدم عالمًا قد انهار أو النتائج الميته لهذا الانهيار. وهى لاتتعاطف مع الانحطاط والشحوب والذبول والموت. إنها على العكس تحتد على كل ذلك وتصرخ فى وجهه باسم قيم تبتعد كل الابتعاد عن العدمية.

المأزق:

والقيم المعيارية التى يحكم السرد باسمها، ليست قيم الفردية العمالية التى مازالت أملاً. ولكنها قيم مستمدة من عناصر متناثرة من فردية الجماعة المتآلفة وعناصر متناثرة من فردية الجماعة البورجوازية إبان صعودها وتحسس هائم على وجهه لمبدأ ترابط جديد غير مبادئ الترابط التى دفعت الذات والعالم إلى التدهور والاضمحلال. لقد كان مبدأ الترابط فى الفردية المتآلفة القديمة قائمًا على تدرج المراتب (الهيرارشية فى الأرض والسماء. فالأرض يملكها هرم متصاعد فى قمته سيد مطلق السيطرة، له مكانة الأب تهبط منه درجات من الحقوق والتبعيات حتى القاع. ورأت

الوثنية الطبقية فى السمـاء مثل هذا التدرج. ونرى فى قصص "مبروك" رفضًا لهذا التدرج القمعى فالسرد يصرخ فى وجة الأب المتسلط فـى الأرض والسمـاء "فصورة الأب" فى الأدب المصرى كثيراً ما تتمثـل فى تصوير جبروته والاحتجاج عليه أو فى تصوير تداعـى مكانته القـديمة). ولكن ذلك السرد من جانب آخر ينوح على مـا تركه غياب هذا الأب الخرافى المفارق للعالم من خـواء واختلال، ويـا للخديعة لقد تعودنا على اعتباره مبدأ الاتساق والانسجام، يفيض به على كل المراتب المتدرجة، وعلى أجزاء كل مرتبة وفى السرد تظل الرغبة اليائسة فى الخلاص مدركة بلغة شظايا تـآلف كونـى إنسانى يكاد يضيع إلى الأبد رغم مقاومة الصرخات والنداءات فالذات الشعرية لم تتكيف أبداً داخلها متسقة مـع الهـدم والذبـول والموت، ولم تتناغم الأوصـال التى ظلت حية مـع الأشلاء التـى سرقها المـوت. وهناك إحساس بالرعب ـــ ربمـا كان تضمينًا لأبيات الشـاعر النمسوى "هوجو هوفمنثال"- من الأشياء تتداعـى زاوية، ومن أن تمسى "أناى" التـى يملكها طفل صغير غريبة على. كأنها كلب صغير. وأرضنا تدور بعيدة عنا ونحن نهـوى فياللهـوة السحيقة، ومـا من أرض تحتها . وفى الهـوة لا أحد ينجد أحـداً لأنه لا أحد يملك أرضًا يقف عليها . فكيف وهـو يهـوى سيثبت نفسه وينتشل طالب النجدة وذلك بفرض أنه استطاع أن يعبُـر المستحيل ويوقف تهاويه ليدير إليه رأسه وينصت إلـى صرخاتـه.. سقط صـوت الإنسان وبعده صـوت كل أشياء العـالم، ولكن هناك نغمـة أخرى مصاحبـة فى هذه الأرض الخـراب وفى كل هـذا الانطفاء القـدرى الغامض. الناس لا تهدأ أبداً . ربما تسكن للحظة ولكنها سرعان مـا تعود للحركة. وهى تحرك أطرافها دون أن تغادر مكانها بينما تصدر أصـواتًا غريبة متباعدة وكل منهم يصدر صوتًا وحده. إن هؤلاء الأفراد يمرون قريبين جداً من وجهى كما لو كانوا لا يحسـون بـى، شئ (أو فرد) منهم يجرى وراء شئ آخر، يشتبكان. يتصارعان. شئ يلقى على الأرض متأوه فى استسلام (العناق الجنسى) ينـهض الشئ الآخر ويبصق عليه ثم يمشى مبتعداً عنه. ولكن الشئ الراقد على الأرض لا يقول كما فى الأرض الخراب أما وقد بدأ فالحمد "لله" على أنه انتهى. بل ينسحب وينـزوى ويبدأ فى الانتفاخ. ويصدر أنينًا ويظهر من بين ساقيه المرفوعتين شئ صغير جداً . وتمتد

من هذا الشئ الصغير أربعة أطراف صغيرة جداً ورأس، ويجرى نحوى صارخًا مادًا يديه: أبت أعطنى خبزًا.

بل أن الأم الأرض تضاجع أى رجل، وغشاء البكارة ينتحى لكل غاز طالما أنه سيأتى بالطعام. وتلك النغمة المصاحبة هى نغمة مملكة الضرورة. الندرة القاسية والفاقة، الخبز الذى يأكل الناس المبعثرين المتناحرين، مملكة ما قبل التاريخ الحقيقى للإنسان، مملكة أو ممالك القدرة الضئيلة على الطبيعة والاستغلال والتناحر.

وتمشيًا مع ذلك نرى قصص "مبروك" تنزع المعاناة الشخصية وحلم التحقق الشخصى من دائرة الفرد وترفعهما على نحو مباشر إلى دائرة الكلى الاجتماعى الكونى معًا. ولا نرى فى تلك القصص الحياة اليومية حاملة دلالتها أو متحركة بسببيتها الخاصة بل بالمعنى الخفى للعالم (أوغياب واضمحلال هذا المعنى الخفى). فالأفعال اليومية المنكمشة إلى أقصى مدى تعبيرات طقسية مجازية عن معان أصابها الفساد بفعل الخديعة والخيانة فى عالم يحمل وجها متنكرًا فى بريق ثلاثين قطعة من الفضة. وتلك المعانى العلوية باطنة منذ البدء فى الأصول والجذور، وهى على الأرض كما هى فى السماء. والحركة العامة فى هذه القصص هى حركة انهيار المعنى المتعالى فى تضاد مع حركة "الخلاص"، ولكن الخلاص القديم محاط باليأس فالسماء خاوية مظلمة.

وسيعاد صلب كل مسيح. أما الخلاص الذى يشتاق إليه السرد القصصى فليس قائمًا على منطق تناسق بين مراتب فى هرم من التبعية، بل على منطق تناسق بين عناصر متساوية فى المرتبة تحيا فى دوائر متحدة المركز. وفى هذا المركز نجد الفرد الإنسانى الحر، ممثل الإنسانية جمعاء فى يوتوبيا الملكية الصغيرة والعائلة النووية بعد انهيار العائلة الممتدة الأبوية وعناصر هذا الخلاص المستحيل صور شعرية مجازية تحلق فوق الوقائع الجزئية والتحولات التاريخية وتبدو كما لو كانت تنتمى إلى جميع الأزمان. وبطبيعة الحال ستكون صورًا "عضوية" "حية" "حقيقية" فى تضاد مع "الشيئية" "الآلية" "الزائفة للحياة المعاصرة" ولابد أن تكون هذه الصور مسرفة فى

نزعتها التبسيطية، فخطوطها العامة هى البراءة والنقاء والخصب والفيض والتألق ومعادلالتها الإنسانية هى الطفولة والبكارة وعناق الأمومة. وتلك النزعة التبسيطية واسعة الانتشار فى قصصنا القصيرة. كما أن السرد عند "مبروك" لا يتدفق بحنين إلى الطفولة باعتبارها مرحلة فى مسيرة شخصية محددة. بل إلى الطفولة على إطلاقها، إلى جذر الوجود وبذرته وأصله قبل السقوط. ونجد الأم الأرض، الأنوثة الخصبة بعذوبتها ورقتها، الينبوع الأول المنبثق بالحياة، وتتفرع عنها الحبيبة العذراء، النقاء الأصيل للوجود، جذوة الرغبة وهى تتنفس فى فيض من الهواء السخى، ولأنها فى جدائل شعرها حينما تبتعد تترك طوفانًا حارقًا من الجدب.

ونلاحظ أن تلك الصور الأساسية جميعا – وهى حالة للروح الفردية ووضع كونى فى نفس الوقت – تتألف من إضفاء الحياة الإنسانية على عناصر طبيعية "أولية"، محدودة العدد إلى أقصى مدى، هى الطين والماء والهواء والنار وتحولاتها المتبادلة. وكأننا نصل مع تلك العناصر إلى المبادئ الأصلية للوجود الكونى والسيكولوجى فى نفس الوقت. وهنا لن نجد اهتمامًا بالتشخيص السيكولوجى للفرد بل سنجد إبرازاً لآليات نفسية باعتبارها ظواهر كونية، وسيكتسب كل شئ دلاته من المستوى المجازى. وسيحدق بنا خطر رفض التطور الاجتماعى التاريخى أو العجز عن رؤيته. وسيحدق بنا خطر آخر هو إغفال "الطبيعة الثانية" التى شكلها التاريخ بالعمل الإنسانى، وهى الجسم غير العضوى للإنسان، أى عالم الثقافة، (الحضارة المادية والعقلية) والوقوع فى وهم أن الفرد يتعامل مباشرة مع السماء والجبال وأعالى البحار لا من خلال "الطبيعة الثانية". وسيترتب على ذلك نزعة ساذجة بدائية تقع فريسة للأيديولوجية السائدة، وتعتبر الوضع البشرى غير قابل للتغيير. وحينما نتكلم عن التطور الاجتماعى التاريخى فى الأدب أى من زاوية الذات الإنسانية فى كليتها وتعدد جوانبها، أى من زاوية طاقات الإنسان النوعية الكلية الخلاقة، لابد من الإشارة إلى الطابع المتناقض لتطور تلك الطاقات فى الأشكال التاريخية المتعاقبة لاستغلال الإنسان للإنسان. فالفردية البورجوازية لم تكن تطوراً إلى الأمام على طول الخط وفى جميع النواحى. فهى بالإضافة إلى إنجازاتها الثمينة كانت نكسة

فى مجال تكامل الفرد وعلاقاته بالجماعة. ولكن بذرة الحقيقة فى الأسطورة الرومانسية عن الحياة الفلاحية أو الطائفة الحرفية (حيث كان الفرد يبدومتطوراً فى اكتمال فى عالم أصلى من البكارة والنضارة والتآلف داخله وخارجه مقابل الابتذال السوقى والتمزق والخواء المعاصر) لا تصلح مصدراً لشعر المستقبل فالعلاقات الضيقة القديمة (بما يلازمها من عجز الإنسان أمام الطبيعة فى الملكية الصغيرة) ليست إطاراً ملائماً لتنمية الثروة الإنسانية فى عالم اليوم. والثروة الإنسانية هى كلية الحاجات والطاقات والقدرات، للأفراد، هى التطور المكتمل لسيطرة الإنسان على قوى الطبيعة، طبيعته والطبيعة الجامدة غير الإنسانية تطويراً يصبح هدفاً فى ذاته. وهو هدف يتجه نحو وضع لا يعيد الإنسان فيه خلق ذاته على أى صورة معينة متحجرة التحدد، بل ينتج كليته الإنسانية وشموله الإنسانى، ولا يستهدف أن يظل شيئاً شكله الماضى فحسب بل أن يكون فى مسار صيرورة مطلقة (التشكيلات الاقتصادية السابقة للرأسمالية. ("لورانس أند ديشارت" لندن ١٩٦٤ ص ص ٨٤، ٨٥). فاستعادة الناس للسيطرة على مصيرهم من قبضة علا قات الاستغلال هو الذى يمكن من ازدهار تطور الفرد على نحو كلى متعدد الجوانب ومن ازدهار تنوع ضخم فى "الحواس المثقفة" من خلال استخدام الوسائل المتطورة جميعاً.

اللغة القصصية:

ونعود إلى قصص "مبروك". إن السرد فيها لا يحكى عن تعاقب أحداث بل عن أنماط من المواقف الأساسية، إيقاعية التكرار تتواشج فيها مراحل عمر الإنسان ودورات الطبيعة. ولن نجد خطوطاً خارجية محددة ولا تنمية خطية، بل توزيعاً للصور الأساسية تبعاً لعلاقات التماثل والتضاد فالازدهار والتألق والنقاء والعناق مقابل الإعتام والدنس والنبذ، وتلك الصور ليست علاقات بين معطيات متجاورة فى الزمان والمكان بل هى استعارات تنتمى إلى مستويات مختلفة من التعميم. وتوحى التجريدات المشخصة التى تحشد تجريدات هائلة فى تفصيلات وإيماءات صغيرة عادية بأن

السرد واقع فى مد التاريخ وجذره ولا يحكى عن فرد فحسب. والحركة تتجه إلى تغليب صور الهمود والنضوب، فالتألق والازدهار لن يتحققا إلا بخوض معركة مع جيوش العدو حليف الموت. "وما من حرب يمكن كسبها دون أن تخاض حتى نهايتها... ولكن عليك ألا تحارب وأنت مثقل بصور الهزيمة" (عطشى لماء البحر). وقد كانت صور الهزيمة غالبة. فكيف تلتقى الأيدى وتتشابك السواعد؟ وهل يمكن لعناق الشاعر محبوبته أن تكون رمزًا يستوعب صحوة قوة اجتماعية وفاعليتها المنظمة الواعية؟. إن الحياة المنزلية الضئيلة البسيطة، الهانئة الهادئة، عش البلبل والوليف والأفراح والوردة كانت دائمًا ملاذًا وهميًا وهربًا واقعيًا فى الأيديولوجية البرجوازية. وقصص "مبروك" تصور أن الحياة ليست بمنجاة من التيارات والأعاصير التى تعصف بها، ولكن تعتبرها القش الناعم للعش الذى تذروه الرياح مقياسًا لحركة الريح.

إن أمنية التواصل والتحقق يتعاقب توهجها وانطفاؤها فى تنويعات دائرية لأوضاع ساكنة، أوضاع هى لحظات كثيفة تنصهر فيها المعانى المجازية فى موقف واحد متوتر بالحركة وإن يكن هو بلا حركة، وتلك التنويعات للأوضاع هى أشكال نمو للصور الانفعالية وذبولها، تدفقها وانحسارها احتدام النزاع بين تلك الصور الانفعالية ومواقعها النسبية، والدرجات المختلفة لنصوعها ودكنتها، ولا تتألف من خطوط خارجية.

ولذلك تجئ اللغة القصصية ساحة صراع بين الأطر الشكلية والقوالب الاستدلالية المتداولة والصيغ اليومية المكررة وبين حدس مباشر للأعماق فى لغة تصبح جزءًا من باطن الوجود النفسى والكونى، هى لغة النبع وأمومة الأرض وتأجج النار والتألق والشفافية والانطلاق وهى كذلك لغة النضوب واليتم والرماد والكدر القتامة والنزف.

ويحاول السرد تحقيق ذلك بأن يحاكي "اللغة" التى ينطق بها الجسد الإنسانى وتنطق بها العناصر الطبيعية التى تماثل الجسد الإنسانى فى قدرته على الإفصاح، لغة الاستجابة للموقف فى انتحاءات وحركات وهيئات بسيطة تبدو امتدادًا مباشرًا

للكائن، كما تصبح الألوان والصفات الرمزية مثل الزُرقة أو العذوبة أو النقاء جواهر واقعية فردية. ويحاكي السياق بالاستثارات الحركة الصوتية المباشرة، لغة الصيحات والصرخات والبسمات وتساقط الدموع وتقطيبات الوجه واليد الممدودة بالرجاء والأصابع التى تتفتح لتلتقى بأصابع أخرى، وكذلك الخرير والدوى وعزيف الريح.

إن وجه العالم مغطى بعلامات ناطقة، وتكشف الأشياء عن قواها الداخلية بعلامات من تشابه وتعاطف أو تغاير وتنافر على أساريرها الخارجية ولكن الطريق إلى العلامة وعر متعرج ملتو، وما أكثر ما يكون التعبير قناعًا، والكلام صمتًا فى العالم الحرباء الذى يستحيل طينًا بالمطر وتلالاً جدبة بالقيظ، وقمحاً أو قطناً أو توتاً حسبما ينافق الفصول!! واستجابة العالم لحناننا كرأس طفل قد تكون استجابة رأس عاهرة لا تعرف إلى الحنان سبيلا. وثمة محاولة يبذلها السرد لعبور الهوة بين حدود اللغة وحدس الوجود، وللإفصاح عن معنى الأوضاع الإنسانية التى تعجز الكلمات عن نقلها. وهل يستطيع حبر الطباعة أن يكون أكثر من حبر طباعة!! بل يزعم السرد أن الطفل فقد براءته مع تعلم حروف الكتابة لغة الأكذوبة والنفاق الرسمى المقنن وتزييف العلاقات. وإن مساحات "الفراغ" فى السرد والتى يتركها شاغرة بين قوسين، هى المسافة بين المسميات الجاهزة والمعانى المعدة سلفاً وبين الالتباس والحيرة فى صميم التجربة والوجود. ولكن "الفراغ" الذى يتمتع بدهاء لا يزيد عن دهاء الأطفال فى لعبة الاستخفاء يعرف السرد مكانه بالضبط ويحدده بقوسين!! أيعرف الشاعر حقًا عنوان التجربة المراوغة التى ستستعصى على التوصيل بين التجارب التى استطاعت اللغة اقتناصها؟.

لقد تخلى الكاتب فى آخر قصصه عن الأماكن الشاغرة التى تبدو تلعثما أوإخفاء للكلمة المناسبة التى يمكن للقول الاستدلالى أن يستنتج نطافها.

ونلاحظ أن الصرخة والضحكة والزفرة وما هو شبيه بذلك ترد فى إطار غنائى موسيقى من توكيد النبر أو خفوته فهناك النداء والاستفهام وإرتفاع الصوت بهما، ثم التحول المباغت عن انتظار الإجابة وهناك التماثل الإيقاعى للكلمات، والتشابه أو

الاختلاف فى طول العبارات وتركيبها. لذلك نجد "صوت القول" موضعًا للإبراز المنفصل إلى جانب مدلوله الإشارى. وكل ذلك يستهدف وقعًا مباشرًا للصياغة اللغوية مماثلاً لما تحاول نقله ويعجز عنه القول اليومى والقول الاستدلالى.

فالنموذج اللغوى المفترض هنا هو نموذج لغة كلماتها هى عين التجربة التى تفصح عنها وهى عين الأشياء والحركات فى الانفعال المتجسد، وإنها لغة تفرعت عن نموذج أصلى وحداته وسائل جسمية عضوية يتملكها كل فرد على نحو مباشر، حركات اليدين والرأس، وتغيرات فى أوضاع الجسم وأصوات حيوية مثل الصرخة والزمجرة والتنهد. لغة الحياة قبل أن يصوغها التاريخ. وما أقل ما نجد النموذج الآخر للغة الحياة الواقعية أى تُراث التغيرات المتعاقبة فى بنية التواصل، لغة الفعل الإنسانى والتاريخ. إن تلك "اللغة" الأخرى لم تبدأ بصرخة أو صيحة أو نداء بل بالعمل الاجتماعى المنتج الخلاق الذى طبع منطقه على الأدوات والوسائل وموضوعات العمل ونتائجه، وكلها ليست أشياء "طبيعية" بل تجسيدات لأنماط مشتركة من الفعل والفكر (ويشمل الفكر هنا الحس والإنفعال). لذلك ليست لغة التواصل الإنسانى كلمات فحسب، بل هى لغة عمل وفكر مجسدة كذلك فى الحجر بيوتًا ومدنًا، وفى المعدن أدوات وآلات ومنتجات، وفى طرائق السلوك نظمًا للعائلة والحياة الشخصية وأشكالًا لممارسة الحياة السياسية، وفى مواد الفن ووسائطه (وتدخل أصوات اللغة ضمن تلك المواد كُتبًا ولوحات وتماثيل ومعابد وقطعًا موسيقية. والحديث هنا عن اللغة ليس حديثًا عن معجم المفردات وقواعد التركيب بل عن نُسُق مفتوح متجدد من الرموز، ورمزية هذا النُسُق هى "ذات" الفعل الإنسانى الخلاق. وموضوعه (الذى لا يجده ذلك الفعل جاهزًا أبدًا) فى نفس الوقت. فتلك "اللغة" قوة توحيد وصراع وتنظيم للأفعال وإعادة لتنظيمها على أسس جديدة، وتوجيه للفاعلية وخلق للوعى ولأنماط الاستجابات النفسية.

ونجد "مبروك" الآن يحتفى فى كتاباته النقدية بالواقعية الاشتراكية أى بالتفاعل بين لغة الحياة الواقعية للغة واللغة باعتبارها واقعًا.

ونرجو أن تكون رحلته الطويلة فى البحث والمعاناة قد وصلت به إلى منعطف جديد يكون بمثابة الطريقة الصحيحة لإلقاء السؤال عن كتابة شعر المستقبل.

نزف صوت صمت نصف طائر

قالوا احك بصوت مسموع، فتدفقت تغرق وجهى بسمة أسف لكلينا. أرهفوا الآذان علهم يتلقفون الكلمات وهى ترفرف ساقطة ولم تزل ساخنة قبل أن تموت. ورأيت الجباه وموجات التقطيب تنتشر فوقها فابتسمت والمرارة فى شفتى: ألم أقل إن طيورى لم تعد تملك إلا جناحاً واحدا ؟ ! ظللت أراهم وهم يعبرون متطلعين إلى عينى ومازالوا يرون ملامحى القديمة.. ولما لم يروا داخل حاجزى الزجاجى شيئا أداروا وجوههم ناحية الطريق وواصلوا الخوض فيه، وعيونهم أسطح بحيرات جامدة لم تهتز. وفى عاصفة الظلمة التى خلفتهم تذكرت يوم كان لى لسان بأكمله، يوم كفوا عن السير فى ليل الخميس وأسرعت الخطوات لتنقطع ويمسى الطريق خاليا. وتتبعتهم ليلتها حتى أيقظلتهم من خميس زوجاتهم على الغربة وأنا أسقطها بين المرتفعات التى نامت فى المنخفضات، تصلبوا فى الفراش واللهاث يتباطأ فى فزع ووجوههم إلى أعلى يحدقون فى أسقف الضوء الأحمر، وليس ثمة قدرة على تغيير الوضع والمرتفعات تبرد وتكتشف أنها عارية والأنهار الدافئة التى كانت تجرى فى القمم تتجمد وأنفاس الزوجات تصفعهم بالصقيع والمنخفضات أحضان كانت تتدفأ مع المرتفعات فى ذاتها، ولما صحت على ابتعاد المرتفعات خبت النار تحت تهطال الصقيع الذى تجمد حادا فى القاع، وسيظل يملأ الفجوات بلون ظلال الغربة لأنك فعلتها وأصبحت غريبة عنى.

لكن الذى يدهمنى ويكاد يفتك بى أن يجتاحنى فى لحظات غامضة إحساس بأن الغربة قد عادت غريبة. وأقول ربما لأنه ليس حلما.. فقد كنت أتنفس بكل جسدى وأعب الحب من رحابة الزرقة وسهول العناق تمتد تتلاقى فى المنخفضات المنتفضة بالشوق وتغنى للعشب الصغير:

– أحضرت اللعبة لأمل؟

ها هى يا حبيبتى. وصحت عليه: أمل. تعال

وصرخ أملي:

هاتها يا أبى

واستدار لينحنى محتضنا قاع المقعد ومدليا ساقيه ليهبط.

أخذت أحل الخيط وأرفعه من حول صندوق اللعبة وأنت منحنية خلفى وأنفاسك كانت حتى تلك اللحظة تدفئ عنقي. التقطت من جوار لعبة أمل هدبتى لك واختطف أمل لعبته.

– عيد سعيد ياحبيبتى

أخذت القلب الذهبى وملامحك الحلوة غامضة وفتحته فإذا بالغموض يكف بعد أن برق فى ملامحك قوسًا دهشة فوجئنا بأننا معًا فى الصورة داخل إطار القلب: ظل واحد يرتفع برأسين وأنت أقصر منى، ورأسك يتطلع نحوى عاليًا راميًا بجداول شعرك للوراء لكى ترتقى فى عينى المنحنيتين عليك، وخلفنا يلمع فضيا نهر التيمز، وعيناك متعلقتان بى كحمامة وديعة تتشبث بغصن يشب ويحملك من وجه العاصفة. ولا أدرى حتى هذه اللحظة كيف حدث أن لاحظت التغيير فى عينيك. من أول ما عرفتك وأنا أرى وأقسم بأن لون عينيك أزرق، أما لحظتها فلقد رأيت الطين يبرز ويرانى فيغوص خافيا نفسه تحت السطح الأزرق، وسمعتك:

– أسفة جداً يا حبيبتى.. لقد فاتنى أن أحضر لك هدية ولست أدرى كيف نسيت أن اليوم ذكرى زواجنا.

ضحكت لكى أهون عليك الأمر قبل أن تستقر بقعة الطين الغريبة فى داخلى حتى أنقذك :

– أوه، كيف تقولين هذا.. وهل نسيت أمل ؟! وأدار خديه الحمراوين وعيناه واسعتان صافيتان كسمائنا وصاح:

- انظر يا أبت كيف يغنى طائرى.. هل سيظل يغنى هكذا دائما؟. وقلت له:

- (طبعا يا حبيبى، سيظل يغنى هكذا دائمًا). والتفت إليه وأنا أصوب السؤال وعيناك على: (أليس كذلك؟) واغرقتنى بضحكك: فاختفى الطين تحت السطح. وسمعتك ترددين سؤال أمل وتفقدينه براءته: (للأبد) جوبهت بالسؤال، فكيف سيغنى للأبد طائر لن يظل. وانحنيت على أمل: (للأبد يا حبيبى سيظل يغنى لك). وبصوت خافت قلت لك: (الطيور لاتحيا للأبد، ربما لأنها لم تعرفه أبداً، لكنها تظل على أيه حال تغنى طوال أبدها حتى ينتهى فتكف عن الغناء)

ورأيت عينيك مشتعلتين بالدهشة التى احترقت لحظة أن أدمت تأملهما، فلم تعودا كما كانتا دائما فى عينى على شاطئ التيمز، فنسيت ماذا نسيت فى القاع.

استمر الصوت يتصاعد بجوارى أكاد أشم فيه رائحة احتراق طيورى وهى تندفع لتسقط وريشها مسود فأحترق لطيورى وأتعذب وأرغب فى أن ينتهى كل ذلك لكنها لا تكف. وقلت للمغنية الأولى:

(اسكتى يا امرأة!) ولكنها لم تسكت لأن يدى لم تمتد لتوقف الصوت، ربما لأنها أطاعت إحساسًا يجرنى بأن مواجهة موتانا أرحم بكثير من التحديق فى الآخر الذى يموت منا أمامنا، كما حدث أن حدقت فى الليل البعيد القابع حيث كنت نائمًا.. آخر مرة كنت فيها نائمًا بكاملى:

بوضوح أذكر أننى تقلبت فى الفراش، فرفعت رأسى كالعادة لأصغى إلى تنفس نوم أمل. سمعت السرير هادئا، وسكون تام يصدر منه، أدرت رأسى فخيل لى أن الغرفة تتغير.. لم أكن أصدق أن التخيل سينتصب بصوت عال هكذا ليفاجئنى، عندما وجدت الظلمة تستحيل إلى ملاءة سرير خالية، وأحسست بأننى لا أملك القدرة على إدارة رأسى أو حتى التحديق بأمعان إلى جانبى فأصغيت أكثر فلم يرن فى أذنى سوى صوت قلبى الذى أخذ يتعالى حتى سمعته كموج أكاد أختنق فيه فقفزت من الفراش وانحنيت على أمل فلم أجد أمل تحت الغطاء انكفأت راجعًا فتعثرت فى السرير. لم أتأوه لأنه لم يكن ثمة وقت لا للتفكير ولا للتأوه فاندفعت ناحية الباب.

ولا أدرى ماذا جعل جبهتى تصطدم بحافته لأحس بها تنشرخ وتنغمس فى لهيب جعلنى أصطدم بكل شئ - كأعمى يبحث عن القلب الذى كان يرى به فى عماه. وأخذت عيناى تفران من قسوة اشتعال الغرف والشرفات الخالية والطرقات الغارقة فى الضوء حدقت ببصرى فى الطريق، فنسيت اللهيب فى جبهتى لما رأيته خاليًا .. وإذا كنت، فلابد أنك انتهيت منه منذ زمن طويل.

وأخذت كل المصابيح تنطفئ فى عينى ليشتعل فى رأسى اللهب والعمى فتسمرت مكانى لكى أتلفت جيداً علنى أعثر عليك لكننى لم أتعثر إلا فى الليل الذى استغربته لما وجدته يفقد سكون السواد ليعج بأضواء الصمت التى تعمى تمامًا، فوجئت بأقدامى يشتد صراخها فوق أرض الغرف ودرجات السلم وأرجاء الحديقة وهى تهرع مقتربة منك حتى تكاد أن تعثر عليك ثم تتوقف فجأة فى لحظة ما قبل أن تحتويك مصطدمة باللا شئ فيكف النداء الذى يتهاوى ساقطا مكانه مكوماً بلا أمل فى النهوض.

من المذهل أننى أحس الآن، رغم أننا فى الليل، بالأشعة الحارقة تنحدر فى عينى من ضحى النافذة ثم ظهيرة النافذة والدموع بعد ما تحول العرق إلى ملح فى جفاف جرح جبهتى تتحول إلى ملح يلهب جفنى، وشفتاى اكتشفتا أن الكلام ليس سوى تعذيب ينتهى بالقتل فلم تفتحا فمهما بكلمة. وحاولت أن أثبت أن رجولتى تتحمل وأواجه قسوة التحديق فى الشمس فلم تسمح لى برؤيتها. ولم أرفع كفى لأظلل عينى لأن ما سأراه فى الظل هو ما أرفضه دائمًا. كنت أشتهى بكل ما تبقى من حطامى فى الرؤية لكنها لم تسمح. وحين مزقت غمضة عينى بتعمد مفاجئ فى مكان جسديهما انهارت فى عينى الضيقتين تلال تراب الشمس.. لسع مكان عينى وفشلت فى أن أبكيه طينا فانتزعت الريق من تحت لسانى كى أهدئ سعير الجفاف فى حلقى وهو لا يبتلع ما يواجهه. وتسرب صوت ضحكة أمل فلم أصدق من الفرح لكنه شحب فجأة وابتعد الصوت وهى تجرى به متخفية بعتمة الظلال فاختنقت. أخذت أتلوى على ضلوع الوسادة بلا جدوى فكففت عن التلوى. كنت أظن أن التعب سيريحنى من المعاناة، بالذات إذا كانت الضربة قد دمرت نصفك، ولكننى من مكان الضربة بدأت أسمعه،

غريباً على أذني ما سمعته في داخلي من قبل ينطلق في العواء من مكانه دونما قدرة على الابتعاد بالعواء، ولا يكف عن الصراخ الذى فقد صوته لأنه لا يملك القدرة على أن يواجه الصمت. والصوت ثقب ضيق حافته المستديرة في حدة حواف الشفرات، والكلمات قبل أن تخرج خارجي تواجه بشفرة الدائرة الضيقة وهي متقدة بوهج الشمس، ويتعالى الصراخ من الطائر قبل أن يدفع برأسه في الثقب ليكتشف بعد الضربة أنه فقد رأسه.وما يسمعونه في الخارج ليس سوى دوى الصرخة المكتوم في داخلي يرن في جلدى قبل المرور، وما يحملقون فيه لا يعدو المحاولة اليائسة للجناح الواحد. وما يشاهدونه بوضوح هو طيورى بعد أن مرت بعنقها خلال دائرة المقصلة. وكل بقعة دم نقط عديدة متباعدة تنز وتلمع وتنمو وتتصل مكونة نصف طائر دموى يحملق دون أن تطرف عينه كما لو فقدت قدرتها على أن تتألم فظلت شاخصة مشدودة الجفن تحملق فيما لا جدوى من إدامة التفكير فيه لأن هـذا كله يبدو أنه سوف لا ينتهي.. لكنني رغبت للحظة ودومت بي الرغبة:

وصلت حيث كففت عن الصعود، محنياً رأسي بالرغبة ويداى تقبضان على حافة السور القصير المحيط بالسطح، والأرض شريط عميق أضيق من جسدى رأيتها فحدقت فيها بأسف. حملت ناظرى وشفتى مزمومتين في قلب السماء الحجرى. تأكدت من اللاجدوى مادامت السماء لم تعد تنبض، ورأيت السخف الذى أخذ ينشع ويجتاح الاتساع الرهيب مبتلعاً كل شئ، مظلم يعج بالنجوم الميتة، وضجيج الصمت يجرى في عروق أصابعي موجات تغلى تصطدم بالحاجز فترتد بذعر لابد وأنه وجد منذ الميلاد معها، مهزومة المرة تلو المرة، والقلب لا يكف عن ضخ الأمواج الضائقة بالمعاناة، وجدوى أن نظل نتأرجح دون توقف مع صبر البحر اليائس، والموج حركة ميتة، واصطدام الميت بالميت يحدث صوتاً أكثر وجوداً منه الصمت .

وسوف تنشر جرائد الصباح الخبر في الصفحة الأولى وبعدها يطوون الصحف لتستحيل إلى عصى قصيرة من الورق الملوث بعرق أصابعهم على حبر الطباعة. والخبر الذى غامرت بوجودى لكى يوجد حتى تفاجئنى به قد طمس هو الآخر فضحكت أخذت

أبتلع ريقى المر عندما ووجهت بأنه قد يحدث كل شئ وأنت فى مكانك الغامض لا أدرى أين من هذه الكرة، ولا أستبعد أن تكونى على فخذيه لأن فخذى اللذين عبرت بك البحر عليهما قد تلاشيا ويحدث كل شئ، وسيان أن يحدث فى ضجة أم فى صمت طالما أن الزمن لازال يملك محونا، ولم تعرفى بعد حتى أننى لم أعد موجوداً فلا داعى إذن للاختفاء بالطفل من كائن لم يعد فى استطاعته تعقبك والبحث عنك لأنه ببساطة لا يستطيع أن ينتفض فى الكفن ويزيل أى حجر مثبت فى المقبرة بعظام الأصابع الخمسة لأن عظام الرسغ لن تحملها عظمة الذراع ربما لأننى مت أو فقدت الرغبة فى أن أطارد حبا مات فى قلب يملكه الآن أعداء. أحسست بالبرد فعدت للفراش وحدى لكننى لما جعلت أشم مكان خصلات شعرك ومكان رأسه الصغير أحسست بأننى لست فقط وحدى، بل عدت أرتعد وأحس بأعضائى الساخنة ترتجف لأننى عدت مبتوراً.

– أدخُل. الباب مفتوح. ضع الزجاجات هنا. هات اللعبة. شد الباب وراءك.

تصورى أن غرفتنا هذه الليلة بلا مزلاج ! آه لو عرفوا ! طول عامين وهم يرون الباب موصداً لأننى وعدت بذلك، ومن عامين وأنا أنتظر أن تأتى وأسمع فى تشف صوت باطن كفك يدق الباب مستجدياً فلا أتحرك وتتنادين. وأسمع صوتك فلا أرد وأسمع جسدك كله يهز الباب وجبينك ينشق ووراءه تقترب نداءاتهم وتوسلاتهم فلا أزيد عن ملء الكأس من جديد أبتلعه جرعة واحدة ثم أمسك بالكأس الفارغة والضجيج يتعالى متوسلاً وتوسلك لابد أن يرفرف فوقهم جميعا، مظهراً نفسه، ومنكساً حتى أحس بأننى لا أحس حتى بأننى أزدريه بل يتدلى كسروال عاهرة فأقذف الباب بالكأس صارخا فوق ضجة الاستجداء:

– لا.

لكنى الليلة رفعت المزلاج. وفتحت النوافذ كلها لكى ترى الضوء من بعيد لأنك آتية فأنت لا يمكن أن تنسى أننا أبحرنا وودعنا التيمز فى مثل هذه الليلة. تصورى أنه حتى درجات السلم ساكنة أمام الباب كما لو أنها تتسمع صوت خطواتكما وعقربا الساعة جديدان هذه الليلة بلا تراب.. يتحركان كجناحين يرغبان فى أن يرتفعا لينطبق

طرفاهما كطائر يحلم بأن ينطلق معتليا ذروة الزرقة ويضم جناحيه كحربة مشرعة فى وجه الزمن الذى يصر على أن يأتى دون أن تأتى ويكف الطائر عن عبث الرفيف فى الأجواء الضحلة ليثبت بالذروة قادراً ومرتكزاً على داخله فقط دونما سقوط لكن لماذا قلت يرغبان والأعداد واضحة؟!.

صدقينى لا أعرف كيف سيحدث أن أنتبه فى الظلمة على وقع الخطى وهى تنسل عائدة، والمسافات بين قدميك تولد وتموت وقدما الطفل، ويدك تقبض على كفه الصغيرة تهرعان بالحذاء الذى اشتريته له بحجم قدميه اللتين كنت لا أتمالك نفسى من الضحك كلما أمسك بهما بين أصابعى لأدغدغهما متصوراً أنهما قدماى وقد عادتا فجأة صغيرتين، إذ أنه يحاول بعناد الطفل أن يكون بقدمين كقدمى لكنهما ضئيلتان إلى حد مضحك:

قدما رجل هاتان يا أمل؟!.

يخيل لى أننى أسمع دقاتها الصغيرة والمسافات بينهما لا تكاد تولد حتى تموت، بل أكاد أحس بالسير الذى أنهكه ينهك جسدى وأعضاءه اللينة ولحمه الطرى يشتعل، ومع ذلك لم تنفرج شفتاه الشاحبتان طوال الطريق ليشكو لك: (إننى تعبت) ويظل يفكر بعينيه الواسعتين فى ظلمة سور الشجر الأخضر التى ستتلاشى من أمامه لأنحنى عليه واختطف جسده الضئيل من فوق الأرض وأطوى عليه صدرى الذى كاد ينبت فيه الجدب وأظل أرتوى منه وأنا أقبله وأتحسس بوجنتى تفاحتيه واضغطهما بشفتى طويلًا لكى أصدق ما ظللت أستحيل تصديقه. والغريب أن ذلك يوجد الآن كمستحيل لا شك فيه مع أن ما حدث قبل عامين وهو ما أحياه الآن كما يحيا الموتى الموت دون شك كان يبدو لى مستحيلا كاستحالة رؤيتى وأنا حى للحظات موتى التى لم أخضها حتى الآن وإن كنت مشحوناً بتوقع لوقع غريب.

– قلت لك لا تغلق باب الحديقة حتى لو طلع الفجر. دعها مضاءة. أرفع الزجاجات الفارغة أولا ثم شد الباب وراءك، قلت شد الباب.

أصبح غريبًا جداً هذا الرجل، لأنه سمعهم يقولون ذلك لا يكف عن النظر برثاء مسرحى إلى الزجاجات الفارغة كلما رآنى يقول لى حرام.. ستقتل نفسك. لابد أنهم رددوا أمامه ذلك أيضا. أليس من السخرية أن يحسبوا أن الخمر هى التى ستقضى على؟!

إننى أراهن على صندوق بأكمله، أن يقف واحد منهم فى مكانى هكذا: عاريًا إلا من عريه، متوقعًا الصفعات التى لن تهبط على جانبى وجهه فقط، بل يتلقاها كما حدث ذلك دائمًا بطول جسده الذى ينكمش خجلًا من أنه يصفع بينما هو عار.. آه.. أن نصفع ونحن نرتدى أنفسنا أمر يجعلنا نقهقه على الذى وجه الصفعة لأنه فى اللحظة التى تكاد راحته أن تعصف بنا يجدنا فوق رأسه ننفجر بالضحك وهو منكفئ على الأرض، مصفوع بداخله لكن أن أقف عاريًا طوال عامين وسط عواصف الصفع هكذا، شئ يجعلنى أوغل فى التحمل أكثر مما لم أكن أتصور قبل أن تهوى صفعتك الأولى، قبل أن تصفعنى فأسمعها فقط لأن الأحاسيس صفعت هى الأخرى فلم أحس بالصفعة، فجأة هوت وأختنقت بالسخط حتى استحلت إلى أصابع مشدودة لقبضة أحست بالصفعة في جسد تنتمي إليه فارتفعت وليلتها.. آه.. أكاد أحس بوقع كل ما حدث يتحرك ثقيلًا، قاسيًا بين حوائط رأسى:

ارتديت ملابسى برغم أننى لم أكن حتى تلك اللحظة سوى عار فى ملابس، وفى الطريق أخذت أحس بضآلتى، مهان يتحرك على الأرض، وقامتى لم تكن أبدا أطول كما كنت أرغب، توقفت لآخذ سيارة حتى الحفل لكن أحساسى بأننى عار تحت الملابس جعلنى أحس بأننى سأختنق بسقف السيارة.

كانت ثمة رغبة نائمة فى العرى كعاصفة يمكنها أن تغرق كل الجزر التى جئت منها لو تأكدت أنك هناك. ولأننى لا أعرف حتى الآن أين أنت، فقد كان ذلك ما جعل الرغبة الملعونة مازالت لهذه اللحظة أسمعها تزمجر عاضة أسوار جسدى الضيقة. غذذت السير بطيئًا، لافا العاصفة بمعطف أسود بلون ما استحال إليه وجهى الأخير الذى لم تريه.. والذى تلاشى كل شئ فيه ما عدا الجفنين متهدلين بالليالى الميتة.

جعلت أتأمل المدينة بعد أن رفعت رأسى قسرًا لأننى لم أصفعك بعد، ولشد ما وجدت المبانى الحجرية عالية، والأضواء الملونة فوقها ترتفع بوميضها فى الليل كمستحيل يتألق أمام عينى المهتزتين من يوم ما فقدتا الكائن الذى كان يشدهما فتثبتان عنده فى داخلى. ضيقت جفنى لأغلف انتصارها بنظرة تتوعدها بأننى سأريها عند عودتى أن الذى صنعها إنسان، وأن الكبرياء الذى تسخرين به منى أنا الذى صنعته، وأن الإنسان، كالعادة سيظل قزمًا طالمًا هو يبنى خارج نفسه.

وهبطت بناظرى إلى السائرين بقامات تخجل من قصرها إلى جوار علو المبانى فى أيدى النساء، وامتلأت إحساسًا بأنهم أقزام، فأسرعت هاربًا منهم.

غصت فى بحر الناس الذين جاءوا لينتصروا فأحسست بالانتعاش، والأضواء تتنفس فى الأسقف، وتنبض فى قلب القاعة فتتوهج فى وجه الحوائط والقاعة تضج خلفى بالمقاعد الممتلئة عن آخرها.. حتى الهواء يبدو معلقًا بدخان السجائر المتوتر بالشوق المشدود فى الصمت الذى سقط فجاةً، ثم فى الهمسات وآلات التصوير بالسواد اللامع والفلاش المنتظر بعدما أطفئت الأنوار فأصبح كل كائن فى القاعة عينًا واحدة تستعد للاشتعال لكى تسجل صورة الصفعة واستحال الصمت إلى سور مصمت يحيط القاعة، وتلك كانت المرة الأخيرة التى كان الصمت فيها صمتًا كالذى كنا نعرفه فى القرية: بلا لون ولاضجة. سوى دقات القلب التى تنسحب من تحت الأسوار لكى تتنفس فقط.

وتحت وقع النغمة الأولى انهار أول حجر من السور وسمعت مع تتالى وقع النغمات تتالى صوت انهياره تمامًا كاشفًا عن عالم لم يحدث سوى مرة واحدة فى حياتى أن رأيته، ربما لأنه غريب، فلم يستطع أن يظل بعد هذه الزيارة فى مدينتى حتى لا يموت إذا تتنفس هواءها الذى نتنفسه الآن. لحظتها، سمعت موجات اللحن تخطو قادمة تحت شلال الضوء الذى اشتعل حولك فى البعيد حيث لمحت فوق قمم الموج المضيئة نقطتين قاتمتين وأخذت الأمواج تأتى وتكبر، والنقطتان تفقدان بالتدريج حدة العتمة، وأفاجأ بك فوق الموج، وأقسم أننى عرفت أنه وجهك على الرغم من أنه لم يكن

الوجه الذى عشقته، وعلى الرغم من أن وجهه كان فى ظل وجهك إلا أننى رأيته كما لو كنت أتحسس ملامحه الدافئة وأصابعى تراها بوضوح وتنزلق مداعبة خصلات شعره الشمسية اللون رغم الليل والذى مازلت لا أصدق نفسى فيه حتى الآن أننى لم أر تحتكما زورقا، بل لازلت أرى بوضوح أصابع قدمى كل منكما والضوء يغسلهما فيلمعان بالماء فوق قمم الموج ويأتيان.

ظللت أحيطك بحدقتى وأسمع الصوت الذى يحترق مخلصًا ليصدق، لم أكن أصغى تماماً فقد كان التحديق فى ذاته إصغاء أسمع من خلاله قدومك والزمن سلاسل تتحطم حولك وأنت آتيه، ومازلت استسلم للذهول كلما غصت فى التذكر لأعثُر فى وسط اللحن على الصوت الذى انبثق، غامضًا كالميلاد، صغيراً مفضضًا، صاعداً ومواصلًا الصعود، متسعًا ورافعًا أمام وجهك هامة من الكبرياء، الحافل بالملامح المتألقة بقوة حتى أن عينيك أصبحتا لا تطرفان بل ساكنتان تتعذبان بالرؤية فقط، والطفل فى ظل وجهك يحدق فيما يراه دونما بكاء، يصطدم فقط بالعالم الذى يبدأ فى تحطيمه، والموج يأتى والصوت يتناثر صانعًا بحيرات نقية على قدر أفواه الطيور الصغيرة المدببة التى أخذت مسحوراً أحس برفيف أجنحتها يصحو وينطلق صوب الشطآن الخضراء من داخلى حاطًا على البحيرات ثم طائراً ليحط معانقًا ينبوع الصوت فى شفتيها. وقمت أخيراً بعدما أرتويت بالفرح معها لأستقبل الموجات الآتية بالضوء حتى عدت قريبة جداً قصيرة أمامى، ترتعين فى عينى، وهو نائم بلا ذعر تحت وجهك وتلاشى الإصغاء فأصبحت أراك فقط والموجات خلفك لا تتوقف عن الاتيان بك وأنت تغالبين الابتسامة حتى تعطيها لشفتى فقفزت من مقعدى لأختطفك من فوق قمم الموج وأختبئ بك منهم فى فراشنا لكن رعداً من التصفيق انطلق خلفى كسياط بطول الظهر فتذكرت فجأة أننى جئت لأصفعك أمامهم. وأنهم يصفقون الآن لأنهم رأوك فجاة بعد أن هربت ويئست منك وأصبحت أمامى فانهرت مشدوداً بسياطهم إلى جوف المقعد. ولم أعد أملك إلا أن أنظر فى عينيك وأبكى من أجلك فى صمت والموج يتدافع آتيا فلا يجعلك ذلك قادرة على الفرار من أمامى ومن رغبتهم فى صفعك وعدت أرى عينيك تهتزان فى أمل كحمامة نهر التيمز، لكن ساعدى مصلوبان على ذراعى المقعد

وثقلت راحتى عندما عدت أسمع الكلمات: وعود.. وعود.. وعود.. فلماذا وعدت، ونحن فى الشرق نظل نعبد "الله" ونموت ونحن نعبده أيضًا لمجرد أننا قطعنا ونحن صغار وعدًا بذلك !!، إزاء صمتى لم تفعلى أكثر من أن غرست فى عينى شعر رأسك المنكس فلم أملك أن أتحرك. ظللت مصلوبًا على ظهر مقعدى أتامل الملامح وأطحن الرؤية للملامح المثقلة بالغربة، وأحفر بحثًا عن الملامح لنهر التيمز التى غاضت كضوء نجمة احترقت، فلماذا نتغير بسرعة ونحن لم نعشق فى العالم إلا أن نظل ؟! لماذا لم تظل الدهشة لكل ما أفعله، والفرح أكثر من وقع نزهات خطواتنا فى شوارع لندن وكنت غريبًا عن المدينة لكنى لما وجدتك استرحت وارتويت تمامًا من الإحساس بأننى أصبحت أملك عاصمة الإمبراطورية واستسلامك فى حضنى ذكرنى بحلم قديم عندما كنا صغارًا ونخاف من خوذات جنودكم التى تصلب شمسنا فوقها بأن نستعمركم كما فعلتم معنا، لكنى وجدت فى استسلامك شيئًا أراهن أن يكون قد حصل عليه قائد الأسطول الذى وطأ جسد أمى لينتهكه بعد أن خرت جسدًا باردًا مطعونًا بلا يدين ونظرته لجسدها العارى تغرقه بغثيانها من رؤيته لكنك كنت إمبراطورية تستسلم بالحب، كالإمبراطوريات التى كانت تتعرى وتفتح فتحة الرداء الأمامية بكامل طولها لنعال الجنود المسعودة لأنها عشقت النبى

عرفت يومها معنى أن ينتصر الإنسان فأخذتك فى حضنى وذراعاى لا تتركان من كل جسدك رقعة لم تتغط وفى صدرك القادم برغبته رثيت لكل قادة أساطيلكم الذين علقوا فوقكم " قفا الشمس" لأن وجهها الحقيقى كان وحلًا يخوض فى الليالى المهزومة.

وعندما كنت تتوقفين بذراعى فجأة فى الطريق لتقدمينى لأصدقائك:

- " شاعر مصر".

كنت أرقب الزهو يؤرجح جسدك فيسمق جسدى وموجات التيمز تعلو وتلمع لتذكرنى بالنيل في ظل الجسر عندما كنت أسير وحدى أتامل الأشياء فأحس بأننى غير قادر على الرؤية تمامًا ورغبة فى أن أرى عالمنا مع إنسان يراه معى، وإحساس فى رؤيتى بالعطش لذلك الإنسان لم أحس به وأنت معى أبدًا ولم أعد أستطيع تصور

عودتى وملامحك الضاحكة بجانبى ليست بجانبى على سطح الباخرة وفى إحدى المرات بعد أن أيقنت أن محاولة التصور مستحيلة رفعت عينى من مياه التيمز ورفعت كفك فى باطن يدى وعانقت فجوات أصابعك أصابع يدى وهمست لك:

– لا أتصور ان تعانق أصابعك أصابع أخرى.

واشتد لهيب خديك وهمست وعيناك على الأصابع المعتنقة: "صدقنى، ولا أنا" فأخذت أحدثك بفرح عن أمى وأخى الصغير والناس الذين ستسعدين بهم فى بلادى وكنت تصغين كما لو أنك تسمعين بابتسامتك وأحكى لك عن أخى الصغير فتضحكين وتعتصرين أصابعى وفى عينيك تسارعت موجات النيل تمرح بين ضفتى التيمز.

وسمعت صراخ أمل: بابا.... فصرخت طيورى كلها وصفقوا واحترق الصوت من المغنية وتدفق الموج بقسوة ثم اشتعل خداك كحريق يضىء البحر ثم انطفأ كل شىء عندما انفجرت الأضواء لاسعة فى القاعة وأخذت أرى الإرهاق معقوداً فى نقط العرق وبسمات غريبة تنبت وسطه، وكثيرون يصلحون هيئتهم ويجيئون ليهنئوننى وكنت ابتسم كطائر سرقته السكين وهم يتدفقون من الأبواب الضيقة تاركيننى وحدى، أواجه بأن الانتصار على إنسان ليس سوى تأكيد الهزيمة تسللت خارجًا فلمحت ظلمة الشارع قابعة منتظرة على الباب. وعاد السور مع الظلمة يرتفع أقسى من الجرانيت بينى وبينك لأننى أنا الذى بنيته ولم أعد أستطيع هدمه، أسرعت بالاحتماء فى عربة فعدت أذكر تهانئهم والسعادة المجهدة تتألق فى مياههم.

كانوا يريدون ذلك لحظة أن حدث كل شىء مع أننى كنت أود أن أعانقك ساعتها لكنهم صفقوا فرفعت وجهى بعيداً عن رغبة عينيك وفعلتها، وجوبهت بالمبانى العالية وأحسست أننى لا أستطيع مواجهتها.

وعندما رأيتها والأضواء فوقها مطفأة أدرت وجهى وصفعته بالأرض حيث اعتاد أن يحيا لكننى وجدت من خلال واجهة العربة الزجاجية أننا ندوس أشلاء منا ما زالت ترتجف.

" أى" نطقتها وأنا أستدير ودقات الساعة تعنف قاطعة بلا شك، وأفاجأ بالجناحين يرتفعان فى أعلى الدائرة وحدهما وأنت لم تأت فبدءا ينفرجان ليبدأ سقوطًا لا ينتهى وحدقت بيأس فى النافذة ولم أر ظلًا واحدًا يتحرك، بل سكون الطرقات النائمة حولى ككائنات بغيضة تحمل ثقة مفزعة فى أن أحدًا لن يوقظها ولن يجعلها تصحو أبدًا هذه الليلة، حتى المصابيح رغم أنها ظلت تقف فى طابور لمسافة طويلة طوال ليالى العامين تتكاسل بمرور الوقت كما لو كانت تعرف أن مهمتها قد انتهت فنامت هى الأخرى ملتفة بضوئها كله دون أن تترك منه شعاعًا واحدًا ليقود اللذين قد يأتيان، حتى درجات السلم يئست لما سمعت زحف السائرين على الجليد ولم تسمع خطواتك، نكست رأسى على لعبة الطفل الصامتة والصدأ ككل عام قادم والكأسان لن يشما رائحة شفتيك وجننت فلهثت حتى رأيت الأرض السحيقة أضيق من جسدى والسماء أضيق من الأرض فكيف سيتسع قلبى لهذا العالم الذى لا يتسع لرغبة واحدة، وأحسست بالأمواج تندفع إلى أصابعى لتسقط، وحاولت أن أعود بجسدى لأن أمل صرخ فلم يطاوعنى صرخت ليسمعنى، والأرض تصعد متسلقة الحائط بشراهة قط حتى انقطعت الصرخة وانطفأت الأضواء كلها واشتعل جسدى وأنا أحاول أن أحتضنك فلم أجدك فى الفراش ولم أجدنى، وأخذت أغمغم وأنا أشرق بالدم والخادم يصرخ: سيدى: والمغنية الأولى تكذب باسمى يا .. ا.. م.. ل.. .

صعق الخادم لما رآه يتحول دما بجوار الحائط يحتضن الأرض والعشب باختلاجة قاسية تشدها كلها ثم رأى فمه يبتسم وعيونه مغلقة، ويموت، ومازالت المغنية الأولى تخلص للغناء وتكذب !

(مارس ١٩٦٦)

مسيح المراسيم المحالة.

فى البدء لم يكن. حتى اللاشئ لم يكن موجودا، لا الصوت ولا حتى الصمت. فكيف ولدت يا رفيف الضوء لتترجل فى الدروب التى لما تجف دماؤها بعد، تبذر فى العيون المظلمة بذور شجيرات النور، تصرخ تظن أنه سيستيقظ إنسان، أفنيت أضواءك لتضئ طرقات انقطعت عنها خطوات الكلمات، فقدت كفيك لما غامرت بطرق عالمهم الغريب وصرخت يا أبت: مَا أتاك؟ حدقت فيهم: ما سمعوك أدرت وجهك نحو الزيتون: فجعل ينتحب فى الصمت، وينضح المرارة فى كل حصاد. كان صليب العالم أن يذكرك العالم، لكنهم جوعى، نسوا الحزن فأكلوا الزيتون، ومن يومها وهم يجمعونه من مواسم الأعوام، ويملحون صوتك فى أحواض البحار الميتة، ثم يأكلون جسدك المنهك مطوحين بالعظم ولقد جعت فحدقت فى الزيتون يومًا مثلهم، لكنى رأيت النحيب فنسيت الجوع ثم فقدته، وأمعائى تتقلص طاردة مجرد التصور، فاكتفيت بأن أشبع كلما شممت زيتونة، ثم تنبهت إلى أننى صرت أقتات الحزن، ماضغا فى بطء مرارة الكلمات التى ماتت ترجو الدخول، على عتبات الآذان الطينية:

مصلوب الآن على لا أرضك(*) لم أصرخ، لكنى لم أملك ألا يسقط منى رأسى فوق الآن، مجبراً على تحمل قدر الوقوف على قدمى الحائرتين فى اكتشاف طريقة آمنة للوقوف ورأسى يحترق بيقظته، يواجه بوضوح حاد تكوم الجثة التى حسبت أننى نسيتها، فإذا بى أفاجأ بأننى كنت فقط نائمًا بالنهار، فجعت لما اكتشفت أن التناوم لم يعد يجدى فى الهرب من الجثث، إذ مافائدة أن نهرع ونطفئ الأنوار ونختبئ فى

(*) مساحات صمت تتخلل الكلمات وهى ليست فاصلا، بل امتلاء غير مرئى بكل ما تعجز عنه اللغة المنطوقة المحيطة بها.

الأسرة ونسحب الأغطية حتى نخبئ رءوسنا بأكملها، مادمنا فى النهاية نفاجأ بأن لا النوم، ولا أغماض عيوننا تحت الأغطية يحمينا من توغل الأدراك لبشاعة القابع فى داخلنا، يحدق فينا بثبات كما لو أنه يرى فى الظلمة بوضوح، مع أن ملايين عيونه مغمضة، إلا أن تحديقة الأعمى يفزع النّوم، ويجعل الغطاء يتطاير والأسرة تتقلص تحتنا، ونحن نرتعد ببرودة التحديق الثقيل فنضطر إلى أن نستسلم لعيوننا التى تنفتح كمصراعى نافذة بلا هوادة، فتصلب عيوننا على التحديق دونما قدرة على النزول. وأحاول فى يأس يتكرر باستمرار تبين ذلك الصوت الغادر الذى يهرع قادمًا مجنونًا دونما قدرة على تتبع مجئ واختفاءات لونه السريعة أو الفرار منه كما لو (   ) لماذا تصفعين جبهتك وأنا أتكلم؟ ألا تفهمين ما أقوله؟

ألم يحدث لك يومًا أن تقلبت من داخلك على جمرات جحيم العالم المفعم برائحة شواء البشر؟ سوف أصرخ لو ادعيت أنك حتى لم تشمى رائحة شواء البشر.

ألم يحدث ذلك أيضًا؟ يا للمصيبة!. مع أن أغرب ما فى عالمنا أنه المحور الوحيد الذى يدور حوله العالم، أقصد سيخ الشواء. لذا تجديننى لا أستطيع تحمل الوقوف به وهو دائمًا يدفع إلى داخلى. وما أطول ما عشت أدور به مع جنون اشتعار النار التى تشتعل تحتى، صاعدة فى انتشار فظيع حولى، متقدمة تجاه الآن لتصل إليه من خلالى حتى أسود. وإذا كنت سترهقين نفسك بالتفكير دون أن تفهمى دائمًا، فيمكنك أن تحاولى الرؤية، بشرط الرؤية فقط، دون صراخ أو إغماء، لأننى لا أطلب منك أكثر من أن تقفى بعيدة، يحميك من مشاركتى الزمن، وفقط تديرين عينيك نحو ما صنعه العالم حيث يمكنك أن ترى مومياء مطلقة اللحية، ساكنة متخشبة على أنها، فاعبرى. ولو أننى أعرف أنى لن أتمالك نفسى من الارتعاد وشفتاك يرتعد بحضنهما ولدى فارتعد كلما حدقت فيما بينهما ووجدتهما مزمومتين. فرجائى أن تعبرى بسرعة خلفى، وأمل أعرف ألا جدوى منه ألا تتركى فى السواد أثرًا. ولو مررت كشمعة منطفئة. مجنون من تترك يداه حافة النافذة ويستدير ملتفتا مهما يسمعه يئن ويموت بين شفتيك. وسأعلق أصابعى من أعناقها بحافة النافذة، وأشد على الأعناق الوثاق،

وسأطبق بأسناني على عنق الغمغمة حتى لاتثير ضجتها ككل مرة، لأنني أكره أصوات الندب الصارخة، ولا أطيقها الآن لو حدث أن رأت الغمغمة مسير عينيك، وصوت ولدى. لأنني أعود هناك، في النافذة: صغيراً وحافياً، لأننا لم نكن نحس بأن الأرض غريبة عن بطون أقدامنا. وأرتدى جلباباً صغيراً وتحته قميصاً قصيراً دونما سروال، لأنني أحب دائماً أن أقف أمام البنات ذوات الضفائر لأتحدث مع واحدة منهن بالذات أبحث عنها كلما سقط الليل وأطل في عينيك فأجدك. آخذك بعيداً وأنت خائفة. آخذ في الكلام لك فلا تعودين تذكرين الخوف وتتكلمين أنت أيضاً لي. ونحب أن نفرح، فيرى كل منا رغبة الآخر في الفرح في عينيه رغم الليل. وننحنى معاً نصنع من التراب جدراناً بارزة على الأرض المستوية، تنقطع لجزء فيكون باب.ثم نكمل مربعاً من الجدران، وبذلك نكون قد صنعنا بيتاً لنا بجوار النهر، أتركك تسكنيه وتفرشين حصيراً وهمياً، وتعلقين على الجدار في الليل مصباحاً وهمياً. والغريب يا عذراء أنه كان يضئ. وإلا فكيف كنت أرى ملامحك الصغيرة بكل دقتها، بل حتى عينيك وحنينهما الأزرق تحت خصل الذهب المهملة على تفاحتيك؟!. وأدعك لبرهة أذهب خلال نهارها للحقل، أحرثه، وأبذر البذور وأغطيها ثم أنتظر حتى تبيت الشمس لأعود لك. وأدخل وأنا أرسل صوتي منبئا بقدومي، هازاً ساقي بحركة متسقة مع سير الحمار الوهمي الذى يحملني وأنا أنادى: افتحي يا بنت. وتهرعين صوب الباب لتفتحيه بأكمله راغبة دخولي بلهفة أم وأندفع متعمداً ألا ألتفت ناحيتك كما يصنع الرجال، وأجلس فتأتين وعلى كسر الفخار نقتات العشاء، ونشبع. وأغرس في فمي ورقة ملفوفة غير مشتعلة وأنفثها أمامك وأفتل شاربي ويداك تعدان لي الشاي. وعندما تنتهي سيجارتي وتفرغ أكواب شاينا تتثاءبين فأفهم. وأخفض صوتي آمراً أمراً حلواً. قومي وطي اللمبة وكما لو أن الغرفة أظلمت تأتين بجواري لتنامي فأستلقي على جانبي لصق صدرك. ويفتح كل منا عينيه في عيني الآخر ونرى السباحة مغرية. ويجعلنا الإغراء نشتعل بالرغبة فنتململ على الحافة ونضحك على التوالي كل منا في عيني الآخر. وفي لحظة صمت نبرق بالصمت على أن نسبح معافنرفع معاً أطراف جلاليبنا. ولتلك اللحظة كنت أمشي بلا سروال في شارعنا عند اشتداد غروب ذلك اليوم. أحسست بالليل يأتي ففررت هارباً من فخذى أمي لأبني لي

معك بيتًا، لكنهم داهمونى بالملابس السوداء مالئين الشارع الذى يمر فى بطن الخضرة منتهين عند زرقة السماء الكالحة حيث كانت المقابر ترفع رءوسها المدببة الجهمة. ورنة الندب عالية محروقة وهم يحملون لى ميتًا. صعقت فألتصقت بالحائط وهم يتدافعون أطول منى فألتصق بالحائط أكثر. ظلوا آخذين فى الصوات. والصوات أعلى منى بكثير، نافذًا فى جسدى كنباح الكلاب التى تجرى خلفى وتعضنى. رغم الذعر لم أصرخ. كنت أدرك بذعر أقسى أن صراخى لن يخيف صواتهم فظللت متشبثًا بالحائط، وعندما اختفوا عدت قادرًا على الفرار. فأرجوك أن تمضى بسرعة حتى أريح ظهرى المصلوب أمام عينيك. وحتى أكف عن إيلام شفتى كلما سعرت الكلاب وعضتنى دون أن أملك الصراخ فى أفواههم. لكنى الآن أرفع وجهى وأسأل: أليس حرامًا أن نصلب؟ لماذا حكم بالصلب دائمًا؟ لا تعرفين. ولا أحد يعرف للأسف لكنى الآن أستطيع أن أهمس لك بالسر دونما خوف، لأن كلًا منا يحاصره زمنه ويحميه، ولذلك فإننى لا أحس بالخوف الآن وأنا أعطيك السر: لأن الذى صلبوه لم يكن له أب. ولما لم يجد أحب بجنون أن يكون له ابن ليرى أباه فى عينيه. والمصلوب الذى لم يلد، لأنهم عاجلوه بالصلب، عشق يومًا ولذا صلبوه. فالذين يحملون قلوب اليهود كرهوه وعندما كانوا يرفلون فى ثيابهم المغسولة أمامها ويسمعونها صوت الذهب فى أكياسهم، كانت تتأفف من النظر نحوهم أو حتى من أن تدير وجهها عنهم. كانوا يسلكون دومًا سلوك الأفاعى الغريبة.

ومعشوقته أنت مثلك. نعم، ظل بلا معشوقة حتى الثلاثين. أتدرين لماذا؟ نعم، كانت أمه عذراء. وظل يحب العذارى ويهيم فى الطرقات ولا يجد.

أذكر كل اللواتى رأيتهن قبلك يا عذراء: كن حبالى. رأيت عيونهن وهى تلد. وتحت الرموش المهزومة تتهدل الأثداء. وعندما كنت ألقاهن فى طريقى وأفتح لهن صدر عينى كن يسلمن عيونهن لى بألم ويهمسن: لم نكن ندرى أنك سوف تأتى، ولكم بعنا أرضنا بلا ثمن. نكست رأسى وعدت أهيم بالثمن المحتبس فى صدرى.

ولكم أخشى أن تستغرقى فى الضحك لو أخبرتك بما حدث لى يوم لقيتك، وأن عالما بأكمله من الممكن أن ينقلب رأساً على عقب لمجرد أن يتعرف الإنسان على إنسان يكفى أن أذكر لك أننى قبلك كنت لا أتحمل رؤية الأشياء، وأحيانًا الناس، بل قد تندهشين لدرجة الفزع لو أعترفت لك بأننى أحيانًا كنت لا أطيق أمى. وأشد ما كان يصيبنى بالاشمئزاز من العالم، مواجهتى بالمحطمين فى الطرقات. بالذات بعد ما يئست من إمكان انتشالهم بعد ما رأيت العالم كله وهو لا يعدو كومة من حطام.

وعندما كنت أدخل كهف الغم، كنت أرى قبل أن أرى أى شئ كل ما سوف أراه: الغم يتراكم كذرات الغبار المتساقط فى أعمدة الشمس المائلة، يثور بالكنس ثم يعود ليساقط كثيفًا قاتمًا فوق أمى وأخوتى، والأشياء، مالئا الأرض. لكن ثمة فرقًا واحدا أن الغم فى بيتنا لم يكن يثيره الكنس، وإنما مجرد التنفس، لأن الكلام كان تلال الغم ذاتها. كنت دائمًا أدخل فأرتمى على الحشية الجامدة على نصف سرير. وأشبك قبضتى تحت رأسى، وأهرب من التحديق فى أشياء بيتنا، فأحدق مغرماً فى السقف الذى يظل ينخفض فوقى، ودونما خوف، كنت أتنهد طارداً كل أنفاسى وبى رغبة واحدة تحتل مكانها: ألا تعود.

وكانت تقترب ثم تقف بالطعام: طبق فى يد ورغيفان باليد الأخرى. تضعه وتغيب وأحدق فى مكان اختفائها رائياً فى يأس موجات الغم التى تجاهد لكى تتحرك فيها، وتعود وبيدها قدح الماء. تضعه أمامى وأنا أتابع قبضتيها المبتلتين من غسيل القدح الصدئ. وكل منهما تقبض على الرقعة المقابلة لها من الجلباب على الفخذ لتجفف نفسها به. ولذلك فالجلباب كان ملوثًا دائمًا عند فخدى أمى لدرجة القذارة( ). وأتذكر أننى سمعتها، ومن تذكرى لصوت لهجتها أعرف أنها سألت إن كنت أريد شيئًا آخر. وأرقب الطعام لفترة طويلة ثم أهز رأسى بالنفى. لكنها لم تكن تخرج بسرعة. كانت تبطئ كما لو أنها مغرمة على ذلك بدافع خفى، ولم أكن بالطبع الذى يدفعها لذلك لأننى لم أكن أبتسم لها فى هذه السنوات الأخيرة أبداً. ولا بد أن شيئًا فى داخلهاكان يرغمها على أن تتعمد الإبطاء فى الخروج لتقف مسافة الوقت التى تكفى لأن تسألنى

فيها إن كنت متضايقًا من حادث وقع لى. مسافة الوقت فقط صامتة لأنها لم تكن تسأل. ربما لو كان ما تراه فى وجهى يحدث لمرة أو مرتين كما كان ذلك فى الزمن البعيد لكانت سألتنى. لكن لا بد أنها يئست لما رأت الإجابة من أعوام طويلة لا تتعدى الصمت، والإغراق فى التجهم. ولابد أننى كنت أخيفها بحالتى تلك إلى الدرجة التى تخاف من أن تسألنى، إذ كانت تبطئ فقط فى الخروج لتتأملنى بحسرة لا تنقطع، هذا إذا لم أفاجئها وأحدق فى عينيها مباشرةً، أما إذا حدث ورفعت عينى فى عينيها فكانت عيناها تتراجعان بسرعة منسحبتين خارج الغرفة أمام الـ (   ) وأضيق بكل ما حولى. ومن خوفى أن تعود وتجدنى لم آكل الطعام الذى قدمته لى، أقوم لأنكفئ على الخبز البارد، أقطعه وأغمسه فى طبق الطعام البارد ثم أدفعه إلى الأسنان التى تدفعه بدورها إلى البلعوم المتصلب فى برودته فيكاد الطعام يجرح حلقى. واستسلم بعد ذلك للمضغ حتى أجد الطبق فارغًا والقدح هبط الماء إلى نصف صدأ جداره، فأحس بأننى امتلأت. وكان ذلك يعنى أنى شبعت صدأ. وربما لذلك السبب غسلت أسنانى جيدًا بعد ما دهشت لما صادفتك تثيرين فى عتمة طرقات البناء الصخرى رعشة الظلمة حول إحدى السمكات المضيئة و(   ) أبدأ، لقد استنفدت كل قدرتى على التذكر، علنى أعود حيًا أحيا تلك اللحظات البعيدة، واكتشفت للأسف أن كل ما أستطيع استعادته لا يعدو خارج التحول: الشكل، رنين الصوت، لمسات الأيدى، أما هو، ما هو داخل كل هذا، فأننى أعجز تمامًا عن أن أوجد فيه. بل أوقن الآن أننا لا نوجد مرتين أبدًا. وما أذكره بالتحديد ليس سوى شكل النافذة التى التقينا خلالها.

كانت رقعة مستطيلة رحبة من السماء ترتفع وتهبط فى منتهى الصفاء على قمم انحناءات خصلات شعرك الطويلة التى كانت تصعد من فوق الجبين الشاهق، صانعة أقواسًا مذهلة لدرجة أنها بدت قادرة علىَ الزهو أمام وجه إله ثم تنحدر رشيقة نحو مؤخرة العنق حيث تتجمع كلها من فوق رأسك وعبر أذنيك ملتقية فى ثلاثة أنهار طفلة، أخذت تتوهج فى لعبة لم تصنعها ثلاثة أنهار فى العالم أبدًا، إذ تجرى الأنهار الثلاثة وتبدأ فى الغوص والبزوغ كل منها من تحت الآخر على التوالى دونما اختلاط أبدًا. مضيئين بلا شمس لعبة شاهقة الروعة لا تنتهى إلا عند أسفل الظهر، حيث عقدت

شريطاً سماوى الزرقة توقفت عنده شقاوة أنهار ضفيرتك يا عذراء. ولا أدرى كيف واتتنى الجرأة على التوقف عند أنهارك، ربما أن جسدى قبل هذه اللحظة كان مشحونا بالتقزز من العالم، وأحسست برغبة طاغية: اننى أرغب فى أن أغتسل حتى النخاع. وتحلو الرغبة فى الاغتسال كلما راقبت لعبة أنهارك. وعندما صرت إلى جوارك كانت الأنهار لا تزال تواصل لعبتها، وفى اللحظة التى تلقيت فيها ابتسامتك توارت الأنهار لتأتى أمواج تولد بلا توقف، تعزف سيمفونية غامضة أحس فيها رغم كل الغموض بأننى آت ويتلاشى العالم الوصمة (   ) أصغى، وأتامل شيئًا رائعًا يولد فى عالم لى (   ) لا، ليس هذا ما أود أن أقوله. أقصد كائنًا رائعًا (   ) لا ليس هذا أيضًا. ربما، أو، آه. ملعونة هذه اللغة التى بدأت تموت هى الأخرى. تصورى يا عذراء أننى أحب مجرد الكلام الآن، فأفاجأ بأن أسنانى تصر على ألا تسمح لى بالكلام، وأننى مهدد الآن بألا أكمل حكايتى لك، وأن ماحدث حدث وسوف يتحول إلى ماض يموت ونحن وراءه دون أن أقول لك (   ) يا عذراء. أو (   ) يا عذراء. آه، لن أحتمل طويلًا لو ظل هذا يحدث. لكن للأسف يبدو ألا مفر من ذلك، وأننى لن أحكى لك أبداً عما حدث فى حياتى لحظة أن أصطخبت أنهارك لحظة أن رأتنى _ربما كميلادى، أو ربما ككل ميلاد، يوجد دون أن نستطيع رؤيته بوضوح، ولا نستطيع التعبير عنه بصدق أبداً. ومع ذلك لا أستطيع أن أكف عن المحاولة رغم جدار البعد:

شفتاك منفرجتان، تسقيننى الأضواء. والسحابات فى نافذتى الشرقية تخضر حول عالم جديد يتبدى فى الشروق، وابتسامتك التى تشرق دومًا أمام دهشتى وسؤالى المتطاير الذى لا يكف:

- كيف جئت إلى هنا؟!

- انس ذلك الآن.

وظل الفرح يدفع سؤالى كيف جئت؟ ومن أين؟ وأنت تحيطين بعينيك وجهى كله وتصمتين. وعندما ألححت من أين؟!

أدرت وجهك. لن أنسى أبداً أنك أدَرتُه إلى بعيد. أبعد مما يستطيع أن يجذف أى إنسان. حيث (   ) أبداً لن أعرف.

كل ما أذكره جانب وجهك والبسمة تنزلق من فوق خديك متلاشية إزاء ما تنظرين نحوه. ثم ترتعش فى الشفاه وتموت، والأمواج تسكن. كانت رغم كل ما يجتاحنا فوق علو الطوفان بالداخل ساكنة مسجونة بالصمت وكاد الطوفان الذى صحوت عليه يومها أن يتلاشى دفعة واحدة فأهوى مرتطماً بالقاع الصخرى.

وتحركت أصابعى بسرعة نحو رسغك، وتسلقت وبر السترة الزرقاء الخفيف ولمست بشرة اليد: كانت يدك تختنق وحدها. وأحسست بها أول ما لمستها تكف عن الاختناق وتسكن ليدى، ووجهك يعود لى، والطوفان يعلو ويتسارع بكل ألق الشموس التى لم تنر العالم من قبل، والبسمة تنبثق وتدب بإيقاع هائل الفوضى والتناسق. والموجات الفرحة تعزف مستحيلاً يوجد.

– أكان قاسياً؟.

– لم يكن له وجه إنسان أبداً!

– كنت أعرفه، لكننى لم أتصورك أبداً إزاء الـ (   )

وسألتك دون أن أتمكن من إخفاء سخطى:

– لماذا عشقته؟

وحدقت فى الـ (   ) ثم ابتسمت بسرعة:

– رغم كل أعوامك الثلاثين فمازلت طفلا.

انتزعت من سخطى ابتسامة مماثلة لكنها كانت مثقلة بالحزن فى شفتى:

– لقد عانيت تاريخك كله فى البحث.

– أعرف. ولذلك السبب فمازلت طفلا.

فالأطفال وحدهم هم الذين يعانون فى البحث. الكبار لا يبحثون عن شئ

وضحكت فجأة كطفلة شقية:

– دعك من السؤال. فى ذلك العالم لا يمكن أن يسأل أحد.

إذا لم يمت سؤالك فسوف تموت أنت. بل حتى أنت لا تملك أن تحيا أو تموت. كل ما تملكه أن تعانى وجودك، وأن تحدق فى المستحيل بصمت.

وعاد الحزن يجتاح الأمواج المشرقة فتسقط فى أسر العتمة وهززت رأسك بعنف.

– آه.. دعنا لا نذكر الجحيم حتى لا نحترق.

تأملت عينيك طويلًا، والصدق الناصع النقاء كأقواس المطر.

ودعنا لا نذكر الجحيم حتى لا نحترق. لم أكن بعيداً لحظتها، لكنك كنت فى جحيمى عثُوراً، وفى العثُور الذى أحيا دائمًا فقده، نسيت كل شئ وأصابعى تحبو، تملك الراحة، ثم تحبو أكثر فتستقبلها الأصابع الخمسة، وأربع بوابات عذراء تفتح فى لحظة شوق للأصابع الداخلة. وبرقت عيناك لى، ثم برقت الشفاه بالرجفات المشتعلة، وأجتاح البرق كل الوجه فاشتعلت منارات العالم خلف كل إبحار، ورأيت الشواطئ. ولم أملك إلا أن أبتسم رغم كل الفرح: كان قاسيا، أقسى مما يستطيع الإنسان أن يتلقاه.

وكان فجائيًا، ولم أكن معداً له، اجتاحنى فتطايرت بجانبك لحظتها وارتفعت. كنت أصعد مسحوراً كطائر دمر البقاء على الأرض أجنحته. وفى اللحظة التى كاد يشوى فيها بالجحيم الزاحف من كل اتجاه، رأى الشواطئ تجئ خلف الرحيل فى فرح المنائر، وخلف الفرح كانت الدهشة تدفعنا للفرح أكثر، ولم نجرؤ أن نسأل إن كان الجحيم قد انتهى، كنا ننسحب كل منا نحو الآخر، بعيدين عنه حتى لا نعود نحترق، ويضئ كل منا بابتسامته وجه الآخر والفرح يهطل فى موجات لا تنقطع.

واشتد صفاؤه يغمرنى حتى بدأت لا أشك فى صفاء ملامحى وهى متفتحة نحو الشروق، بحيث جعلت أحس بانصباب الأضواء وارتواء بشرتى التى أخذت تتوقف

لتتأمل ببطء ما تحت غبار الأشياء، وأنا أغوص فى أمواه الدهشة وطعم العالم يبدأ فى التغير: المرارة تبدأ تنخفض من فوق جدران حلقى وتغيب، وربما لأول مرة أو ربما لمرة ثانية أحس كما لو أنها أول مرة بل يخيل لى أننى ذقت تلك الحلاوة من قبل. كأنها من قبل كانت مفقودة، أو غائبة. لأننى عندما ذقت حلاوتك أحسست بها مختبئة، غامضة تتيقظ وتعود، كما لو أنها فرت من عالمى قبل ذلك كقطة صغيرة حاصرها كلب يقارب على الجنــون ربما ذلك أكثر وضوحًا. ففى اللحظة التى بدأت أعثر فيها على طعمك الحلو تفجرت فى جسدى كله فأحسست به يحلو بشكل غريب، حتى أننى بدأت أتأمل كلا من راحتى واذوقهابلسانى لفترة طويلة ثم أبعدها وأتامل شفافيتها التى تزايدت لدرجة أنها بدأت تضئ وانسياب أصابعى حتى نهاياتها (   ). وأخذت أقبض يدى وأبسطها كما لو أننى أكشف عن قوة ذراعى ثم تحسست فكى وذقنى وأسفل شفتى كنت أحيا عطشى إليك، وكنت بلا وعى أدلك شفتى فأحس بالحلاوة الغامضة على لسانى، وبدأت راحتىَ تهوى لمس شعرى الخشن، حانية عليه، صانعة منه خصلات قوية فوق جبهتى تعلو متكبرة كما لو أنها تبدأ فى مواجهة العالم. وكلها إحساس رائع بأنها قادرة على أن تواجه. وبدأت أخاف على جسدى من التراب. لا أفهم السر بالضبط، لكن ما أذكره أننى بدأت أهبط النهر كثيرًا لأغتسل. وأظل لساعات غير محدودة بين المياه الحلوة الدافئة وهى تغسل جسدى وأنا أتأملها بشغف تتدافع فى موجات صغيرة تهطل بين شعر ذراعى وساقى الذى كان يتموج مع المياه التى لا تتوقف عن الجريان. وكنت أتعرض لنشوة طاغية عندما أنتصب وأتأمل هبوط القطرات على جسدى الشاهق وهى تحيلنى إلها مصريا يغتسل تحت شلالاته.

وما جعلنى أستسلم تمامًا لتيار الدهشة الذى بدأ يسحبنى بدء رؤيتى للعالم كما لو أننى أكتشفه يا عذراء: أكتشفت أن جسدى كان يختبئ فيه كائن يملك أن يجعلك تبتسمين له، وأن الجحور الجبلية التى كانت تحاصرنا فنختنق فيها بيوت ولها نوافذ، وأن الشوارع ليست سراديب نمل، وأن الأشياء ذوات الرأس الواحد والأربعة أطراف، والتى ترتدى مزقًا مضحكة من النسيج وتتحرك مشدودة إلى الأرض دائمًا، لم تعد أشياء. انبثقت منها فجأة عيون فأصبحت ترى. وعندما كنت أتأمل أى واحد منهم

بدهشه، كان هو الآخر يتأمل عيني. وتصورى أن يستحيل شئ إلى كائن لدرجة أنه يستطيع أن يبادلك نفس التصرف؟! نعم، بل حتى تماثيل الثلج، أدفأتها الضحكة التى لا تنتهى فى نافذتى الشرقية فأصبحت أتأمل بحب غريب شكل تسريحات الشعر، وإيقاع الخطوات الرشيقة التى تنظر إلى الأمام، والثقة الغريبة فى أن الطريق يخضع للسير، بل كيف يتمطى الكحل فوق الرموش الممتدة ويحمر اللون الأحمر فوق الشفاه، بل وفى مرات عديدة، لاحظت أن عيونهن بدأت تلمع، وفكرت بفرح تجتاحه الدهشة كيف حدث أن تحولت كتل الثلج إلى إناث، بل والأغرب من ذلك أننى أخذت لا أستبعد أن تكون بينهن عذارى.

ولما دخلت بيتنا لأول مرة وأنا أحملك، وجدت أمى مازالت جالسة مستندة بظهرها على جدار الغرفة بجوار السرير الصدئ. جعلت أقترب منها وأنا مندهش لوجودها على هذه الحالة التى أوشكت أن تكون أبدية (   ) حاولت أن أتذكر متى بدأت تجلس هكذا، ربما قبل وجود الزمن الذى نعرفه أو المكان الذى يأسرنا، أو حتى الشمس كشمس. أحسست بالاكتشاف يجئ كطعنة الـ (   ) ماذا صنعته كى توجد وتظل هكذا؟.

وأخذت أُعانى رؤيتها وهى توجد. والشمس تتسلط عليها وتحركات الدود المولود، ثم وهى تصلى لمن وراء جحيم الشمس وجنات المطر وتسأله الطعام بعد أن فَعَلَ فعلته.

لكن الغريب أنها لم تكن تشتكى لى منه، وكان يغيظنى أنها تعشقه رغم كل تعذيبه ولا مبالاته بها.

وبدأت أُعانى من وعيى بأنها حزينة فجعلت أسألها عن ذلك، وأحاول أن أسألها بمرح إن كان يوجد طعام، وأصبحت أرجوها أن تجلس بجانبى وأنا أتناول طعامى، واطمأنت أمى لى فاستدرجتها حتى بدأت تشكو، فأخذت أصغى: لم يعد وجهها وهى تشكو يجعلنى أتضايق منها. بدأت أحس، كما لو كان ذلك لأول مرة، بأنها تعانى، وتعانى أكثر بكثير مما كنت أتصور. بل وأخذت أحس أحيانًا بما تعانيه ووجهها يتقلص، والمعنى الصعب يحاول أن يطفر ثم لا يلبث أن يتكور تحت الجلد وبعدها

يختفى شيئًا فشيئًا، غائصا فى القلب، مفجرًا دمًا أسود إلى شفاه أمى التى تأخذ فى الارتعاش بعجز، وأحس بما تعانيه قائمًا إزائى (   ) لا يسمح أبدًا بمجرد التفكير، لدرجة أننى بدأت أضطر لحظة أن أدير وجهى ناحيته إلى التراجع بقفزتين أو ثلاث خشية أن أحترق فى الـ (   ) أبدًا لن أنسى لحظة أن حدقت فى وجهى وتأكدت من أننى أصغى للـ (   ).

آسف إذا وثقت الآن أننى عاجز عن نقل هذه اللحظة لك، وأن حبر الطباعة لا يمكنه أن يفعل أكثر من أن يكون حبر طباعة كل ما أستطيع أن أذكره أنها لما تأكدت من أننى أصغى توقفت شفتاها تمامًا، وأدركت أنها تؤنب نفسها لأنها شكت لى، بينما أنا أصغى فعلًا، قفزت فجأة وحملت الطبق الفارغ وسألتنى إن كنت أحب أن أشرب شايًا.

لمحت الرقعتين المتسختين فى ثوبها، وضحكتك يا عذراء، فأحسست بأننى أختنق، وقلبى ينتفض تحت وخرات حادة فقفزت وراءها. وضعت كفى على كتفها وأنا لا أجرؤ على النظر فى عينيها، وعلقت عينى بشعلة البترول والدخان الأسود يتصاعد غزيرًا خانقًا إلى رأس الموقد.وقلت لها أن كل هذا سوف ينتهى، وأنك تحملت كل عمرك الماضى فلا أقل من أن تتحملى أيامًا قليلة سوف تمضى بسرعة، وبعد ذلك لن أجعلك تعطشين للفرح أبدًا، ولحظتها كنت أراك يا عذراء.

ابتسمت أمى، والدخان الأسود يتلاشى وانهمكت فى إعداد الشاى ثم سمعتها وأنا أشربه فى غرفتى تتكلم مع جارتنا بصوت عالٍ، بل وسمعتها تضحك أيضًا.

وشاهدت الليل يوشك على البدء فى السقوط، فرأيتك يا عذراء تمدين لى جسرك عبر الأمواج الليلية، وأخذت أحدق مشدوها فى الجسر المتوهج الممتد من أول ساحل الجدب المتسع ورائى حيث المحارات الفارغة تحت مناقير الطيور الجافة، وعظام الهياكل العارية للطيور على هياكل السمك الميت، ومحاجر العيون الخاوية، حتى ينقلنى عبر كل الليل إلى إستدارتى عينيك وهما تستحيلان إلى بوابة واحدة تقع فى نهاية النهاية أسفل الزنزانة الصلبة الصدئة الزرقة، مستديرة عبر البعد القاسى، مفتوحة على

عالم لم ينم كعالمنا خوفًا من الظلمة لأنه لم يعرف سوى الصحو في حضن الشروق دونما ليل كليلنا، دونما موتى.

أول ما رأيت ذلك لم أتمالك نفسى من أن أصيح مناديًا على الذين يتساقطون ميتين على الرمال خلفى، ونصف عددهم لم يمت من الموت نفسه:

- سيأتى يوم لن يموت فيه أولادنا.

كفوا عن حفر اللحود لأولادهم برهة، سمعت فيها قلوبهم تضج بالفرح، لكنى سمعتها تصاب بالسكوت فى اللحظة التالية، وهم لا يصدقون آذانهم، لأنهم عادوا يحدقون فى الأرض فلم يروا سوى الماضى الممدد فى لحده فانخرطوا فى البكاء:

- أنت لا تقول الحق.

وكدت أسقط باكيًا معهم وأفقد صدق رؤيتى لولا أننى تمالكت نفسى ومسحت عينى بسرعة وقلت لهم بصوتى المبحوح: أقسم بكم أننى رأيت. وعدت أجول فى الطرقات أقول للرفاق: "ارفعوا عيونكم...

وانشروها إلى أقصى ما تستطيعه الأجنحة.. فلن تعود قمة الطموح تحت سقف مقبرة..

ارفعوا عيونكم، واملأوا الأشرعة بأفق العالم لأننا:

سنأتى بأطفال لن تموت ...

وأغرب ما حدث ياعذراء لحظة أن انتهيت من ندائى، وأطبقت شفتى، مديراً عينى فى الصمت، إذا بى أفاجأ بها ما تزال تجول فى الطرقات تقول للرفاق.

استغربت فتحسست شفتى فوجدتهما مزمومتين بشدة، وعدت أصغى فإذا بها تجول فى الطرقات تقول للرفاق. أخذت أنصت بدهشة لأصواتى التى تتقافز من صمتى تحتشد فى الطرقات، وأصوات المعاول تتوقف عن حفر اللحود. والطرقات تجن بالصوت فتصحو جارية نحو الأنهار الدائمة، واطئة كل القيود، منتزعة كل صليب،

محتضنة المصلوب من عليه، ثم حارقة الصليب حتى لا يجدوا صليبا يصلبونه عليه ثانية عندما يأتى الـ (   )

....

....

المستحيل يا آذانا طينية مستحيل الرؤية، مستحيل الاحتمال وما حدث وكان أقسى من احتماله تحوله بفظاعه إلى الـ (   ) هذا الذى صار ممكنا. بلا توقع أبداً، ومن جوف الصمت الهادئ المتظاهر باللا اكتراث، القابع فى منحنى ليس شديد الظلمة بقدر ما هو ملون بالظلال المتطاولة تتماوج بأنفاس ليست للريح، أخذ يبدأ صوت الحدوث. محالًا قادمًا بتؤدة كما لو أنه ليس غريبًا، موغلًا فى الوجود على حساب تخلينا عن استغراب وجوده، محققًا نفسه بتراجعنا وفرارنا فى الصمت، سارقًا أرضنا من تحت أقدامنا. والغريب أننا لا نبدأ فى الاكتشاف إلا متأخراً جداً. فى اللحظة التى نرى فيها أرضنا تدور بعيدة عنا، تحته. ونحن نهوى فى الهوة السحيقة التى ليست تحتها أرض، حيث (   ) حين (   ) أبداً. اللامعنى هو المعنى الوحيد لأية صرخة تطلب النجدة. فى الهوة لا أحد ينجد أحداً. لأن لا أحد يملك أرضًا يقف عليها، فكيف وهو يهوى سيثبت نفسه وينتشل طالب النجدة. ذلك بفرض أنه استطاع أن يعبر المستحيل ويوقف تهاويه ليدير إليه رأسه وينصت إلى صرخاته.

ولقد حاولت أن أوقف عينى عن الاهتزاز فطعنت بالـ (   ) وأنا أرفع حيث المسامير ترشق فى راحتى المشدودتين للتسليم بعيداً عن ذعر الشفاه إزاء طغيان المستحيل. والـ (   ) ينمو بيننا، يتمدد، يستحيل إلى أبعاد تتوحش، ترقد كغرق البحر، غليظة القوام كموجات استحالت إلى قبضات خرافية تخنق أية أصوات تسقط فيها. وإزاء طعنات المسافات الموغلة فى دفعى سقط صوت الإنسان فى الـ (   ) وبعده صوت كل أشياء العالم، فأخذت أتأمل طويلا: صمت الزيتون. عدت أنظر لهم (   ) فقدت كفى وأنا أنظر لهم. لم يحتمل الرجال. لم يقف بجانبى سوىّ الحبالى نظرت لهن (   ) أماالعذراء (   ) رفعت وجهى مذعوراً من الصمت فحط على

الصمت. وارتفعت إلى السرسعات المعذبة التى تنطلق رغمًا عنها طوال زمن التعذيب وتندفع لائذة برأسى أحد من المسامير المحمية فى كفى. وسقط وجهى من الصمت عائدًا إلى الصمت. وتأملهم المحاصر فى العيون التى تعانى الرؤية يحاول أن يثبت، أن يستكين، ألا يصرخ، ألا يحتج، ألا يطلب الرحمة، ألا يثور، على الرغم من أنه يتعذب بالـ (   ) وصمت نفسه. ولم أستطع أن أبتعد عنهم بعينى وأتركهم بعد ذلك، وتذكرت ما سوف يأتى فجعلت أنتحب على العالم الذى تيتم من بعد ما صلبت الكلمات.

وأرفع وجهى نحو العالم الصلب، وجبهتى لم تنمح من عليها ظلال الأرض من طول الانحناء فوقها، وأحدق بخجل الذى كان وأذكر مانسوه (   ) أبدًا، من الصعب يا آذانًا طينية أن تثبت عيوننا على عالم غير ثابت، عالم قوس قزح أكثر وجودًا وثباتًا منه، عالم يوجد ويفنى فى كل يوجد، وفى كل يفنى. نراه فى اللحظة التى لانراه فيها، وعندما لا نراه، نراه، وعندما يوغل فى حضننا نحس بأنه ليس فى حضننا أبدًا. وعندما يبتعد نحس بوجوده بين الأثداء تمامًا كما لو أنه تعلم الخديعة من مخادع لم يضبطه أحد حتى الآن. ولو ضبطوه لن يستطيعوا إثبات أنه مخادع، لأنه فى اللحظة التى سيطبقون عليه فيها بأيديهم لن يكون بين أيديهم.

وكم نحن ضحايا خداع أبدى أكثر وجودًا من الأبد نفسه، تشترك فيه أمنا التى تضاجع أى رجل وتدعى أنه من صلب الآلهة لتوهمنا بأننا آلهة، وضحايا أغشية البكارة التى تتنحى لكل غازيستطيع ان يشعل نارهابعدما يهدم الاسوارطالماانه سيأتى لها بالطعام. وضحايا العالم الحرباء الذى يستحيل طينًا بالمطر وتلالاً جدبة بالقيظ، وقمحًا، أو قطنًا أو توتًا، حسبما ينافق الفصول. وإلا فكيف فقدت الزمن الذى كنت أدخل فيه بوابتك المتوهجة بالأبد المشرق دومًا وهى تفتح لى فأهتف يا لعالمى الرائع، وأحس بعد كلماتى بالصدى يتطاول فى ذاتى لأحس بأننى ما يتوهج فى الشمس، ويصفو فى الزرقة، ويصلصل فى جريان الأنهار، ويخفق فى سماء الأجنحة، ووراء كل انتظار يجئ. وبعد كل جوع يأتى أعياد حصاد، وفى أمسيات النهار الشقية نسيم رخاء، وللزوجات اللواتى يعذبهن خلو الفراش فى الليل الأرمل زوج يعود. يسرى

للعذارى فيحتضنه حلماً، ودماء تجتاح بحريتها أية أسوار، وعنده تنتهى الأشواط، ومنه يبدأ كل شوط جديد، وأنى كالإله القديم القديم القديم، يلعق كل أدرانكم بحنو لسان قطة احتضنتكم، لتكونوا أنظف، ويسقيكم لبنه بلا ثمن. لكننى أعود أنسى ما نسوه، والأشياء تدوم بالوميض الذى يعمى قبلما يختفى، وفكى الأيسر ينام فزعًا فى حضن الكتف المرتجفة، وذراعاى أتأملهما بحسرة الذى اكتشف أنهما لم تعدا ذراعيه، وشفاهك تتكور بالـ (   ) مستحيل، والعالم يحمل وجه يهوذا.

عندما كنت (   ) لم أكن أعرف ذلك. كنت أبتسم فقط ليبدأ كل ما ابتسم له صراعًا عاشقًا من أجلى. أبدا لم يكن كيوم أن جئت لك وجسدى جمرة تتنفس فى فيض من الهواء السخى، مجنونًا بالاحتراق، ورغبة الرماد المعمر فى أن يصحو، أن يستعر أن يجن بينما هو يتصاعد عاليًا، ويدى تطير لتلتقط يدك، وعيناى تفردان أجنحتهما لتناما فى عشك فإذا بالباب يبدأ فى الإغلاق، وأحس باللحم يثقل فجأة ويتعرض للتدمير إذ بدأ يفقد جلال صحوه الأبدى. لكنى لم أكف عن إدامة الرفيف والتحديق موغلًا فى الاقتراب وأنا أخنق الصرخة وأصارع نهش الاستغراب المتوحش. وتحول كل هدب إلى يد تتحسس بابك الموصد بلا سبب فلا أجدهما زرقاوين. وإن كانتا رماديتين كما رأيتهما فكيف ملكتا الزرقة التى اسودت فى عينى أمى كل ذلك الزمن؟ وطفقت أسأل الـ (   ) هويت للغرق قبلما أتمكن من الصراخ، وشفاهى تتلوى بلا جدوى. ثم تستسلم كل منهما ملتصقة بالأخرى فى صمت. وعيناى تتبعان أقواس الشعر التى تليق باستقبال إله، وهى تستدير وتبتعد وعيناى مصلوبتان على آنهما. تتأملان للحظة أخيرة قبل الغرق الأبدى: الأنهار التى أخذت تتأرجح بعنف خلفك، وأنت تبتعدين بها، تاركة طوفانًا حارقًا من الجدب يندفع زاحفًا نحوى، وأنا أشرب رغمًا عنى عطش الصحارى اليتيمة دون تبرير عادل يا (   ) تلاشى التأمل حتى اقتصر على العمى، وخلف العمى عالم كان يولد لى فانتزعوه منى وأودعوه الصمت. لكن صمتى لا يقبل ذاته، فليس محتملًا أن نكتشف أننا لم نكن نملك عالمنا، وأننا فجأة نحس بالأشياء وهى تنفلت منا، والشئ الوحيد الذى يتبقى، الوحيد الذى يتبقى: عرى أصابعنا البارد. وأن كل هذا العالم الذى نحس به تحت أصابعنا كرأس طفل يستجيب

لحناننا، يستحيل إلى رأس داعرة تتحدى أى حنان يحاول أن يحتويها بسخرية هازئة صلبة لا تملكها إلا داعرة تجيد هدهدة الرجال لثلاث دقائق تجيد بعدها نسيان أنهم ضاجعوها، أو حتى رأتهم فى حياتها وأدير رأسى لأرى بوضوح عينى وهما تنسلخان عنى، وتتسكعان بعيداً وتسقطان على وجه الأرض، حيث الألوان القاحلة، والوحل الدموى القاتم الذى لا يجف، والطنين حول رأسى يبدأ نشيداً فارغًا تحت الشمس الرصاصية، يشتد ويخفت لكنه لا يبتعد، وتتدحرج العينان ببطء ليس لتتأملا لكن لتلتقطا أنفاسهما فى مواجهة الأشياء. والحدة فى جوانب الأشياء تجرحهما، وتجعل جسدى يرتجف، غير قادر على أن يثبت فى مكانه أبدا، وإحساسى يثقل بالشراع المشدود للإبحار وحباله تتقطع ويبدأ يهوى فى التراخى دونما إبحار. وصوت الموج يتخلخل فى العالم الضحل، والعودة للوقوف فى المخاضة التى تبول فيها الخنازير، والتى لا يعبرها إنسان إلا وغسل قدميه من آثارها قبلما يمضى.

وتتدحرج العينان ببطء تحت ثقل الفزع ربما تواجهان شيئًا أقل حدة، وإذا بهما تتوقفان عن التنفس تماماً إزاء ما حدث:

جف ما فى التى كانت كائنات فعادت تتحزم حول نصف طولها، وترتدى أكماماً طويلة فى سيقانها وتتحرك، فيقفز الغبار من الأرض ليدوم فى الهواء ثم يعود ليساقط فوقها فتستحيل إلى لون الأرض، والشمس نفسها بعد أن انصهرت وتجمدت استحالت إلى شحوب أوغل فى العتمة حتى السواد، ثم هوت فى برودة الرصاص. والأشياء ذوات الأطراف لا تسكن أبدا. وربما تسكن للحظة، لكنها تعود للحركة وهى تحرك أطرافها وأحيانًا دون أن تغادر مكانها بينما تصدر أصواتًا غريبة متباعدة، وكل منهم يصدر صوتًا وحده. واقتربت منهم بحزن. فجعلوا يمرون قريبين جداً من وجهى كما لو أنهم لا يحسون بى، وأفظع من كل ذلك ما صدمت به مرة: فقد حدث أن رأيت شيئًا يجرى وراء شئ آخر ثم اشتبكا معًا وصارا يتصارعان حتى أوقعه الشئ الذى يجرى وراءه على الأرض. ثم رأيته يفتح ساقيه بعد أن أوقعه ويرتمى فوقه، والشئ الملقى على الأرض يتأوه فى استسلام حتى نهض الشئ الآخر واقفًا وبصق عليه ثم مشى

مبتعداً عنه. تألمت للشئ الملقى على الأرض فظللت أنظر له.رأيته ينسحب وينزوى بجوار جدار جحر وبدأ ينتفخ. بعد فترة أخذ يصدر صوتًا يشبه الأنين وهو يمسح على انتفاخ بطنه.

وبعد فترة طويلة من الأنين الصادر عنه رأيته يشحب تمامًا، ودرجة صراخه تتغير وتتسارع ثم تمدد على الأرض ورأيته يرفع ساقيه إلى أعلى ويأخذ فى صراخ عالٍ جعلنى أكاد أجرى بعيداً حتى لا أتعذب بسماعه، إلا أننى تسمرت مكانى، إذ سرعان ما لمحت شيئًا صغيراً جداً يظهر من بين ساقيه المرفوعتين ثم تمتد منه أربعة أطراف صغيرة ورأس، وفوجئت به عندما انطلق جاريًا نحوى مصدراً صراخًا صغيراً ماداً يده الرفيعة ذات الخمسة أطراف الصغيرة جداً: أبت، أعطنى خبزًا !.

صعقنى الإدعاء، وودت لو أبعده أو أصرخ فيه أو أضربه أو أجرى منه، واستغربت نفسى لما أخذت أتأمله فى صمت وشعره الليفى يكبر ويتخذ لون الرماد وأنا أتساءل دائمًا وأنا ملتصق بالأرض ومؤخرتى تؤلمنى ومع ذلك لا أملك القدرة على النهوض: ما معنى هذا؟ رفعت رأسى بغية أن أتنفس بالسؤال فلم أجد أية سماء تمنحنى قبضة هواء نقية، وكنت أريد أن أسأل بصوت عالٍ لكنى لما جوبهت بذلك عدت أدرك أننى أمام الـ(   ) بلا أب، وأن أى سؤال سأسأله سيعود محترق الأجنحة، رفعت جبهتى فى جبهة الـ(   ) رأيت حوائط اللاجدوى منتصبة بينى وبين العالم. وبدأت تسقط حتى الرغبة فى السؤال عن الجدوى، ما دمت قد عثرت عليك لأفتح راحتى فأجد أصابع يدى عارية منفردة فى تراخ كأرجل جواد انتهت من شوط خائب. أخذت أحدق فيها بحماقة أمنية أن أعود أزرع وجهك بين حنانهما فأفاجأ بلا وعى. بأنهما قد عادتا ملعونتين: اقتربت كل منهما من الأخرى دونما رغبة، كحيوانين قزمين من جنس واحد لم يخلقا مثقوبين، وليس بين ساقى كل منهما مفتاح المدن الموصدة. لذلك فهما مرغمان بدافع مجهول المكان والمصدر على أن يتقاربا تحت الضغط المهين للفقد، وكل منهما ملعون، ويعرف أن الآخر ملعون أيضًا، والتقارب بينهما يغدو لعنة تجمعهما معًا. والأصابع تيأس فى البحث خارجها فتستسلم. وأرى كل أربعة أصابع تتجه فى انكسار الغزاة المرتدين نحو فراغ أصابع اليد الأخرى، حيث تدخل حانية

رءوسـها، وتركـع، ثم تنثنى صـافـعـة رءوسـها بظهـر الراحة الأخرى الصـخـرى صـانعة سجودًا مميتًا معلنة به هزيمة البحث أبدًا، طالما أننا لم نحفر لنا منفذا آخر فى جدران الطريق الجرانيتى المنحدر مؤديًا إلى قـاع لحد. وأصـبعاى الكبيرتـان تنهضـان قائمتين معًا بجوار بعضـهما لتسدا الفوهـة التى تؤدى إلى الفجوة التى سـقـفتهـا الأصـابع فاستحالتا عمودين لباب المقبرة، وبينهما فتحـة فرج أسـود تؤدى إلى رحـم التابوت. ولم أسـتطـع أن أدير عـينى عن هـذا الـ (   ) ياعـبث الأيدى التى أرادت أن يولد العـالم، فأحالها العالم مقبرة. وحتى التابوت يرقد بحضن راحتى ولن يهدأ أبدا، لأنه لن يدفن فيه ابنى. سيظل تابوتا معدًا لكائن يموت ولم يُصرح له بالدفن. وعلى أن أرى ابنى ميتا أمامى كلما وجدت التابوت براحتى فارغًا ينتظر. وكلما أحسست بوجودك أشم بقوة فظيعة رائحة موته كلما مرت سترتك الداكنة الزرقة وشـفـتـاك لا ترحمـان ابنى، ولا تتركانه لى كى أدفنه، ودائمًا مطبقتان عليه كل ما أستطيع رؤيته لا يعدو الفاصل بين الغطاء وقـاع التابوت الذى جفت منه العصّارة القديمة التى ربما كان يفهمنى لو كانت ماتزال تمرح فيه.

وأرفع رأسى لأقـول لكم بصوتى المفقود بعد ما طفت بالأرض الخراب من خلف شفتى الملوثتين بالرماد (   ).

"عندما يقولون لكم ذهبنا إلى المقبرة ورأينا الحجر الذى يسد الباب قـد تـدحرج لا تصدقوهم، فلن يتدحرج، وعندما يقولون سوف يعود لأنه قـام، لا تنتظروا. لأننى من يوم أن مات ولدى مات أبى، مت. فعندما يقولون لا تصدقوا، لأننى أنا الذى أقول الآن.

وعندما ترون الشمس تصلب وتسقط كل يوم والعالم يمضى منكس الرأس، حاملًا كل احتاجه مقتولا بسكينة اليتم، لا تعودوا تذكرون أن العالم معشوقة للذى صلبوه وأنه سيكون يومًا أبا، امضوا حاملين يتمكم، وقفوا أمام العذارى اليتامى، وليختر كل منكم يتيمة ويأخذ يدها فى حضن يده، وعندما نهتف به والدموع فى عينيها: أبت؟ فليهش لها، ولتكونوا آباء أولادكم.

يقول لكم ذلك، لأنهم، قبل أن يرى أباه عندما أراد أن يكون يوما أبا، شدوه بعد مارفعته إرادته، على الصليب".

ويدور سيخ الشواء (   ) نشوى وننتهى إلى لا شئ (   ) حتى اللا شئ ربما لن يكون موجوداً، إلا شيئًا واحداً يا آذانا طينية (   ) لن تستطيعى أن تديرى عنه وجهك الطينى أبداً مهما هرب فى الطين:

صوت وقع الخطى السائرة للأفنية الخلفية، يتساقط ليدفن فى الرتابة، مجرجراً صداه ليغوصا معًا فى الأرض رائيًا كنبى تعس كل انتفاضات غبار الطريق الرمادية تبهت، تستحيل إلى جليد يشحب تحت الضوء الأبدى الساكن حيث ستدفن كل الأصوات وتدفن جثث كل رغباتها معها فى الـ (   ) .

ولحن الجنازة يتلاشى (   ) ويظل محلقًا صوت إيقاع واحد معتوه (   ) لاينتهى (   ) لا يبدأ (   ) لايسمع.

(يوليو ١٩٦٦)

(نشرت بمجلة المجلة القاهرية سبتمبر ١٩٦٨)

جحيم أبد الرحم

" سيقال يومًا ما، يومًا مذبوحًا كالعادة، حدث أن أستعر سؤال فى شفتى طفل. وكان كصوت الصدق القديم. وتحررت الطيور فاندفعت آمنه فرحة بالانطلاق، والفوهات كانت متربصة، تنتظر بالإصابة صوت الأجنحة الفرحة الغازية بالشوق قلب المذبحة وإزاء القلب تمامًا، ثقب الصدر حارقًا دائرة ضيقة من الزغب الفرح ينبوع دم منبثق. وأخذت الأجنحة تتنفس بقوة، والعينان اللتان أخذتا غدرًا وهما تحدقان فى سماء صدق أخذ يموت. ويأتى الحزن كالغرق فيهز الطائر رأسه دون تصديق لما يقع. ثم تتراخى الأجنحة سائبة بلا رفيف، مسلمة نفسها للسقوط. ويظل وجه الطفل مدارًا بالدهشة وفمه الفاغر محشو بجثة صمت ميت. وسوف تظل الكلمات تذبح كالأيام أيضًا.

فيا قدرنا القادم بدون خطى: ستقام المذبحة، إننا نعرف، لكن ما لن يحدث أبدًا، حتى لو أغلقت أفواهنا رغمًا عنا أن نغمض عيوننا، وسنزوى فى عتمة الأركان المقبورة، وندفن، لكن على ظهورنا لتظل وجوهنا مدارة بفجوتينا السوداوين اللتين ستظلان شاهدًا لا يمل إدانة العبث"!

* * *

وقعنا(*) مواجهة الأشياء المنتصبة في برود. وعواصف النار التى تجتاحنا حتى تلاشينا عواصف ألوان حولها. وقوف وسطها ومفاصلنا سائبة.

(*) مساحات صمت تتخلل الكلمات وهى ليست فاصلاً، بل امتلاء غير مرئى بكل ما تعجز عنه اللغة المنطوقة المحيطة بها.

والظهور المنتصبة تلقت الضربة ولم تجرؤ أن تحتفظ بانتصابها لحظة أن سقطت. لم تملك أن تحملق فيها ولو للحظة. فلحظة جاءت وراء حدتها المندفعة بكل ثقلها حارقة استمرار الفقرات، انقصمت ظهورنا. وانطوينا بنصفنا العلوى تجاه نصفنا السفلى، طاوين شروعنا فى أن نظل وسط هذا العالم، نتجول وعيوننا تبرق فى الطرقات. متطلعين إلى الأمام ببريق متصل، وإلى أعلى ببريق الفرح الشاسع، حيث الغموض الأزرق يشد هاماتنا دوماً، جاعلاً أقدامنا لا تكف عن الحركة والدبيب ومواصلة الخطو يلهب أعناق أشواقنا بالرغبة فى أن نغزو الأشياء كلها: رحم الأرض. مصير الأمواج المبحرة، قمم التحدى الشاهقة، متاهة الإصغاء ل(   ). لكنا صحونا من الوهم لنسقط فى(   ) وأسره لنا. ومحاولة ملاحقة الأيدى القادمة وأرجلها تخوض فى الهواء:

- شد حيلك.

يظنون أن ذلك يعزينا، وأيديهم تمتد تشد نفسها حول يدى.

- البقية فى حياتك.

هراء. بعد أن نموت لا يتبقى من عمرنا شئ.

- كل من عليها فان.

ياببغاوات تتغنى بهزيمتها.

- هو الدائم.

- هو الدائم.

- هو الدائم.

- لكننا نموت.

- ....

وخـفت أن أسوطهم بغيظى فـأخذت أهز رأسى وفى داخلى يذبحنى السؤال عما لا يتوقف، وإلى متى يظل هذا يحدث؟

ونفدت الأيدى فانتهى تبادل كل ما هو متعارف عليه وميت.

كلمات قديمة فى جفاف السمك المقدد لا تجد سواها عندما يحاولون أن يعطوك، ولن تجد سواها عندما تحاول أن تعطى. لعبة مفضوحة لكننا لا نملك غيرها. ننسى ساعتها للضرورة ونتبادلها. وعندما تنتهى الضرورة وينفض الناس تنزوى الكلمات فى الأركان. وحين نسمع بضرورة جديدة نجرى إليها ونحملها، ونبذل جهداً يائسًا فى جعلها حية. ننطقها وملامحنا صامتة. ولايدرى أحد شيئًا عما فى صمت الملامح.

مضوا. واكتشفت، وأنا أرقب ظهورهم، العالم الذى استحال إلى فظاعة تمارس. وهى لا تمارس بعيدة عنا، لكنها تدفعنا رغمًا عنا من داخلنا لإعداد كل ما يلزم للموافقة على ما يحدث. لا أحد مات وأصر العالم على الاحتجاج. كلنا نموت فنهرع فى بسالة لنحفر قبورنا ونشترى لأنفسنا الكفن بسعر مرتفع، ونصيب البرق بالسعار أو نعلنها فى الصحف، أو نذهب سيراً على الأقدام. ندعو كل من نحب وكل من نكره، نجمعهم من الطرقات وأمكنة العمل، ومن البلاد البعيدة لتكون الجنازة أكثر ضخامة ومهابة. وكلما كانت مراسيم الدفن كاملة وممارسة بإحكام، ازداد زهونا، وأحسسنا بأننا أدينا واجب تأليه قاتلنا، والاحتفال بتأليهه. وسط الميادين التى تفيض من أجله بالكائنات البشرية. والضحية فى المقدمة مستلقية فى الصمت ومغطاة بالملاءات الواسعة المعتمة الثقيلة التى تنسدل فى جلال فاجر واستسلام قدرى للقاتل نحيط به الضحية، وجثثنا تملأ الميدان والطرقات المؤدية له، والشرفات وأعالى البيوت مكتظة بهم، ليست كائنات بشرية حية أبداً تحت هذه اللحظات أنها ليست سوى جثث ضحايا آتية. مستقبلها محاصر فى الرأس الذى نراه شاخصًا فى الجثث. قبل أن تستحيل إلى جثث. لو نظروا فجأه نحو أبدانهم المتحركة وراءه لرأوا نقاط الدم الشاحبة المرشوشة بغزارة تكاد تغطينا بأكملنا، والدماء الحية فى قلوبنا ترتجف تنتفض بالذعر وتكاد ترفض أن تخرج للأطراف وسطح الجلد. ونمضى بلا دماء، حاملين فى أبداننا الجليدية انتظارنا لطعنة القاتل المؤله.

أغمضت عينى علنى أستريح للحظة من مواجهة البشاعة. لكن الإنسان لا يستطيع الاستمرار فى ذلك فتركتهما كما كانتا مفتوحتين بشدة تؤلمنى. وبرغم ذلك لم تعودا تريان كما كانتا من زمن بعيد. ثمة ما يضرب بين الأشياء، يفصلها، يجعلها مختنقة بغلاف العتمة. لم يعد ثمة وضوح راسخ، حتى حوائط ما نحتمى به ليست سوى امتداد فى الهواء وتحت الأرض إلى مدى قصير. وفى لحظة ما، طارئة وغير معقولة، مع أنها ليست أيضًا غير محتملة، تجئ فتغلف العالم بعاصفة من الغموض، ثم تنحنى وتقتلع بسهولة تحت خفاء الغموض كل ما يقع تحتها: الناس، حوائط الاحتماء، الأشجار، بالسهولة نفسها غير المعقولة التى تفقد بها إنسانا كان. وتتكلم عنه الآن.

يا نارى.

أطلقتها خلفه. ثم انطلقت خلفها (   ) أبدًا ليس من السهل أن ترى كل شئ يقتلع وتظل أنت ثابتا لا تقتلع. حتى لو ظللت متوجا فى مكانك. فأنت لن تعود تحس بأنه مكانك. إنه ساكن، ليس تحتك. أنت الذى تتوهم أنك راسخ فوقه. هو مغطى به لا يعبأ بك. فأنت لا تدخل فيه. وهو لا يمكن أن يسقط فى أسرك. بل أنه يصفعك بأبشع صفعة يمكن أن تهينك فى العالم. إنه ليس مكانك. أقدام كثيرة لها رسوخ الأعمدة الحجرية ماتت وسقطت حيث تقف. وأنت نفسك لو استطعت أن تظل ترى، سترى الذين سوف يمرون ويسقطون بعدك. مرور وحسب للسقوط فيه. أو على الأكثر مرور للسقوط فى مكان آخر. وطؤك للأرض لا يعنى أنها أرضك. بل حتى لو أحطتها بأسوار من الأسلاك الشائكة المكهربة فإنها كذلك لا يمكن أن تخضع لك. تستطيع أن تتصور أنك سيدها لأنك تسوطها كل يوم. وتغتصبها بالمحراث وتجبرها على الحمل بأن تغرس فيها البذور، ولكنك لا تملك أن تمنع نفسك من السقوط وأنت تقف وسطها فجأة ودون أن تستطيع الاستناد إلى أى أحد بل أى شئ. ونهش الغربان لك. وتهدى للدود فى الخفاء. يولدون وتظل سوقهم تشرع فى النمو والانتصاب دون أن يدركوا أنهم زرعوا بلا جذور. وأنهم لا يستطيعون أن يظلوا. وأنهم حتما سيسقطون وبين أقدامهم خطوة لم تقطع بكاملها أبدًا.

آه.

انصبت بها النار بجنون طاغ يجعلها تأتى مجتاحة بالحريق كل ما تمضى عبره، لم تشتعل أبدًا كما اشتعلت فى الداخل لحظتها. آه لها وجهه وذراعاه وصدره وساقاه تلم ملامحها وتتعذب مغلقة عينيها وتنفجر: "يا أماه". فأسمعها تحترق: " ياناري".

وتندفع المخالب تحتضن النار ناهشة أثداءها من فوق الصدر غائصة فى جراح اللحم المحترق بالداخل، متراجعة للخلف، مقعية على الأرض، متمرغة بها. الأصوات لم تعد أصواتًا بل ثقيلة وقاسية كالأيدى. تمتد من أفواههم المثقوبة وتمسك بها من كتفيها وينقطع الصراخ فى وجه دائرة الأيدى. والرؤوس العديدة لابد أنها لا تسمع صوته، وحدها تسمعه. ودائرة الأيدى تصرخ فى لحمها فيختنق صوته ومخالبها ترتعش ولا تترك أثرًا فى وجوههم. كانوا يملكون جلدًا كحيوانات فقدت حِسها فاستبدلت به جلدًا ميتًا. ومن فوق دائرة الأيدى يعبر الصوت ويسقط فى حجرها: " يا أماه " وتحتضنه: " ياناري ". "ياناري" (   ) لا مفر. يا(   ) لا جدوى. لا الاغماض ولا الصمت (   ) نتراجع؟ نحن لا نملك. حوائطنا ملتصقة بخطانا. سجوننا تتحرك فى(   ) لا مفر. يا (   ) أبدًا! كنا نأمل فى جحيم أقل. لو من الممكن أن يكون جحيمًا أقل. هذه الأيام الطويلة من(   ) آه. من الجحيم، تتساقط. وحسبما قال كثيرون ظننت أننا سوف نعود للنوم. فنسقط فيه وتظلم الدنيا. نصحو ونعرف من ابيضاض الحوائط وأصوات الباعة أننا غرقنا فى النسيان خمس أو ست ساعات. وأننا لا بد من أن نكون قد استرحنا. وأن تكرار ذلك لعدة مرات سوف يعودنا النسيان، وأن الزمن دواء لكل من لا دواء له، لكن ذلك لم يحدث. وضعت لها حبة فى كوب الماء وابتلعت أنا حبة أخرى، وأطفأت نور غرفتها وأغلقت عليها الباب ومضيت إلى سريرى. وأشعلت السيجارة وحاولت أن أتامله وأنا أدخن متشبثاً بالسحابات الرمادية التى تندفع بقوة وتتصاعد لتتسع وتشحب شيئًا فشيئًا حتى التلاشى. لكنها حتى فى التلاشى لا تغادرنا. انها تحلق على الجدران وتحت السقف، وتظل مع الاحتراق تهبط نحونا. تطبق شيئًا فشيئًا على تنفسنا. وعاد وجهه وتقلب فسمرت ناظرى ثانية بلفافة الدخان أتأمل غلافها هذه

المرة بكل ما أملكه من قدرة على التركيز حتى لا يفلت منى تفكيرى. لكن عينى زحفتا حتى الطرف الملتهب فعاد وجهه يتعذب وعدت أرتعد. قمت وسحقت الطرف الملتهب فى قاع المطفأة لكنى لم أكف عن الارتعاد.

كانت الغرفة معبأة بالدخان والموت. فكرت: للغرفة نوافذ. فتحتها فجعل الدخان يتسرب، لكن الموت لم يتسرب، فعدت أختنق بالإدراك: ليس لعالمنا نوافذ. عرفنا ذلك منذ وقعنا خلف الانتظار. منتظرين أن يرتفع. وما وراءه يتخفى به. مغلق الفم فى رحم الصمت المجهول الملامح. لكنه كان سيأتى. وإن كنا نتأرجح بين هوى الخوف وحواف الرجاء، إلا إنه كان سيأتى، ولم نكن نعرفه، إلا أننا كنا ننتظره. كان اليأس والأمل يرفرفان معًا فى انتظارمجئ الإتيان. فالانتظار سميك الحوائط، راسخ كعظام ضلوعنا التى أطبقت بها على رئاتنا الضربة. والرغبة تنسحب مضغوطة تشد نفسها من شق شديد الضيق عليها، لا تنى تدور فى مكانها، متمردة على الوقوف، ضائقة بالأسر بين حوائط الانتظار الصلبة الامبالية. حوائط فقدت الإحساس بما فى داخلها، تراها قابصة وحسب لاتتسع ولاتسحق، وما يرتفع ويصخب باللهب ليس سوى داخلنا، والرغبة تبدو مسعورة لاهثة، والضيق: المتنفس الوحيد مسدود النوافذ حول الذين تختنق عيونهم بالظلمة وتستجدى ما بين النوافذ المسدود بالطين وما بين الحوائط أن يتسع أن يضئ. ترى منه ما سوف يجئ. وأيدينا مطرقة نحو الأرض، تصغى للصمت. ثم تسعى كل منهما ملتصقة بالأخرى عل ذلك يوقف هذيان الرعشة الخائفة، لكن لا جدوى. كما لو كان الذعر فى الداخل لا يأبه بكل ما هو خارجه. طاغية لا يكف عن طغيانه إلا إذا كف هو عن أن يطغى. وحين شق الظلمة تقاطع الأضواء، اجتاح الذعر كل أرجائنا فكففنا عن التنفس، وكم رغبنا أن نكف عن الارتجاف حتى يمكننا أن نرى وجه ما بدأ يأتى:

سحبونا من أيدينا التى أسلمت نفسها لهم. وظللنا نجتاز، كما لو كان ذلك لدهر بأكمله، ممرًا، مظلمًا، مسدودًا بباب غرفة موصد. وقفنا حيال الباب الموصد: هى الغرفة، لاشك. رأيتها مطفأة الأنوار فانطفأ من كل الوجود. وتساندت أسنانى مذعورة بعضها بالبعض الآخر وسط عاصفة باردة من الخوف.

وانفتح الصمت عن شئ ملقى، سلط عليه فور دخولنا مصباح حارق. استبد الصمت ثانية ويد تنتقل من فوق كتفى لتحلق فوق الشئ الملقى وتظل محلقة فوقه. والأصبع تحنى عنقها الطويل وتسير محدقة فيها كلها: جثه. وينتقل: جثة الرأس، جثة اليدين، جثة الجثة. أليس؟ لكنه ليس فى مكان آخر. ليس خلف الجدران ولا النوافذ ولا الأبواب. وليس فى البيت الآن. وليس عندها، وليس بين أصدقائه، وليس فى الطرقات، وليس فى إحدى المركبات، وليس فى حجرته، وليس فى الغرفة، وليس فى الجثة.

- لا.. ليس.

- إنه هو.

- لا. ليس هو.

- أقسم يا سيدى أنه هو.

- أقسم أنه ليس هو.

لكنه هو يا سيدى. وهذه هى بطاقته. انظر. وفتحها وتمنيت أن تنقض على صاعقة وأن أموت أنا مقابل ألا يكون.

- أليس هذا اسمه يا سيدى وهذا اسمك؟ وهذا اسم الأم؟

- لكنه ليس هو.

- لكنها بطاقته.

لتذهب البطاقة إلى جهنم.

تحمل يا سيدى.

ما طاقة الإنسان حتى يتحمل هذا؟ أنا أعرفه. لو وقف أمامى الآن خلف شارع مكتظ حتى نهايته بالناس فسوف أرفع رأسى وأراه وأشير إليه.

- اقتنعت يا سيدى؟

تأملته بغيظ وهو يريدنى أن أقتنع وأخذت أبحث فيها عنه: أمسكت بجثة اليد. لا. رأيته فجأة وهو يحط على غفلة فوقه صامتًا محدقًا. لم يسبق أن رأيته. كان ليل العالم على جانبى منقاره الأسود الذى يغمغم بأنه انتقل إلى ملكيته. افتح فمك. أرجوك. حرك شفتيك. لا جدوى فالمنقار لا يرتفع. والليل على جانبى منقاره يهطل. يغمر كل ما تنفتح عليه عيناى. ويظل يغرقنا، ولا يتوقف عن إغراق جدراننا الراكعة، الساجدة، الملقاة، يزيح بقاياها ويحط هو. ارفع رأسك ولو مرة واحدة. ألا ترفع رأسك؟ لا تستطيع الآن؟ ولا غدًا، ولا بعد غد؟ يا(   ) لو تحرك إصبعك! حركة، وسوف يطير هذا منها. لكنه أخذ يحدق فى ببرود قاتل من فوق الجثة حيث حط. أدرت وجهى بعيدًا عنه وأغمضت عينى. قيودك تكبلنى.زنزانة الصخر حولى: صمتك.

سقطت جثتا اليدين من يدى. سحبتهما محموتين. من على الجبهة الثلجية.وتحتها عينان لا تسمعان. ساكنتان بلا رؤية تحت الجفون المطبقة. مددت يدى معًا على جانبى جثة الوجه. وبكل من إبهامى أزحت جفنيه معا إلى أعلى. اجتاحنى الحريق الثلجى للنظرة فجمد إبهامى على جانبى رأسه، وأغلقت عينيه ثانية بذعر. كانت النظرة تنبع من هناك، من خلفنا، من كل ما وراءه خلف، حتى كل ما لا خلف له، الخلف الأخير الشاسع الذى لا يكف. يتركنا لنأتى بهم، فننحنى بعمرنا ونضعه تحت سيقانهم الطفلة. كلما نزفنا عمرنا استطالوا، وكلما أخذنا فى الانكماش على العظم وتساقط الشعر من فوق جماجمنا ازدهر الشعر فوق جباههم، وكلما متنا، يحيون. تركنا لنقوم بالصفقة كما اتفق كل الناس. أن نقبل الصفقة بدلا من. موافق؟ موافق. لم أجد بدلا من غير ذلك. هات ورحت وأعطيتهم كل ما أملكه وجئت بها، لم تكن مناسبة تمامًا. لكنها كانت مناسبة. كنت أعرف اننى اذ ظللت أبحث عن المناسبة تمامًا لن أجدها أبدًا. ليس ثمة علاقة "تمامًا" بين الأرض والبذور. أقصد علاقة سابقة. فالعلاقة لا توجد قبل العلاقة. أنها توجد وهى توجد وقد وجدت بيننا منذ زمن بعيد. وضعناه. خرج وقال لن أتأخر.

وقلت لها إننى سآتيها به، وها أنا سأدخل وعلى وجهى غراب الأصوات. وستدير رأسها لتراه هو حسبما اتفقنا فتفاجأ بالليل الذى يهطل على جانبى منقاره. وعندما ستصرخ من الرعب ولا تستطيع عيناها أن تغادراه، سيزعق فيها، سيشلها بكل ما يطلقه عليها من غربان. وستطرحها الزعقة منكفئة على وجهها وسيظل يزعق فوق مؤخرة رأسها ويحدق فيها من الخلف كما لو كان يواجهها وأشد قسوة. كيف سأنقذها يا(   ) وقعنا(   ) انفتح كل ما هو خلفنا وصرخ غراب الأصوات وهوينا. ليس ثمة انقاذ. ماذا سأقول لها؟ يجب ألا تصرخ. أعرف أنها ستتنكر. أنا معها. الجثة ليست هو. لن نفقد كل عمرنا كى نتركه لنا فى العالم فيرده العالم لنا ومازلنا أحياء، جثة. أعرف. أعرف. أعرف.وحنيت رأسى حتى جاءت العربة.

فتحت الباب فجوبهت بها وسطهم، موجة السواد المنحية نحونا. ليست ثمة وجوه فوق الملابس. ليست سوى كتل حمراء من اللحم الغارق فى النحيب. وصعدت أيدى الرجال وأصابعهم ملتوية فى جوف العربة. ثم هبطت بالقماش الممتلئ الممدد الطويل. " ياناري. ياناري ياناري".

أمسكوا بها وأصابعهم ككلابات فى جسدها الذى لا يتعدى حجم طفلة مسلولة تعض فى كل مكان من جسدها كلابة. وشعرها القصير سقط من فوقه الغطاء فبدأ واقفا كله يواجه الفظاعة التى اجتاحته وأحرقت غطاءه، عيناها تبرزان لتطلا على الـ (   ) ياللموت! لم تكن تتأمل وجها واحدا، كانت دوما تحدق فوق رءوسهم وأصابعها مفرودة بكل اتساعها. ويكاد جسدها يندفع طائراً كورقة تحترق ثم فجأة تنثنى أصابعها كلهامتشبثه بباطن اليد ثم تنفرد بقسوة لمرات عديدة بجنون يائس لتنتزعا من السماوات الفارغة شيئا لا يوجد. ثم تدير رأسها إلى ناحية ما وتسكن سكونا مذهلا وعيناها ناحية إصغائها وما تزال يداها مرفوعتين رغم الأيدى العديدة التى تحاول أن تثنيهما عما تريدانه. وفجأة تصرخ فى كل الوجوه دفعة واحدة ومؤخرتها المتلاشية تتراجع للخلف، وساقاها العظميان تتصلبان ممتدتين على الأرض

وهى تنحنى بالصرخة وعيناها الحمراوان تحترقان فى الذهول ثم تنكفئ حتى يصطدم وجهها بالأرض وتحدق فى الـ(   ): " ياناري، ياناري، ياناري".

لبثت مديراً رأسي للحائط ووجهي مغطى. والمصباح خلفي وخلف الغطاء مضاء. وكنت أوشك على فقدان الصحو، والسقوط في الذهول والظلمة. وسمعت الجدار يهتز فصعدت للصحو ثانية. سمعته يهتز للمرة الثانية بعنف، فرفعت الغطاء عن وجهى بسرعة وحدقت فيه وأخذت أصغي. امتد صمت طويل سمعت بعده الجدار ينتحب نحيبا ممدوداً فينفلت بصعوبة قاسية، ويصعد عجوزاً نحيلا لها. كففت عن الإصغاء فتأكدت أنها هى التى تنتحب فى الليل. لابد أنه يتعذب أمامها وجهى يعانى عذاب أن يموت وشفتاه جافتان محترقتان ونداءه الذى لم يصل إلينا ولم نسمعه ولم يجبه عليه أحد. وغص حلقى وأحسست برأسي يأخذ فى الاشتعال. خفت أن أستسلم للنحيب فقمت من الفراش وسعلت بحيث تسمع هى، وسكت الجدار. وضعت قدمى فى النعل ومشيت فأخذ النعل يحتك بالصمت الراقد ويفزعه حتى أخذ يصرخ. طرقت الباب وفتحته أنا، وأضأت المصباح وأنا أسألها "أتنادينني"؟. لم تتكلم. وظل وجهها بصمته مداراً للحائط لا يبدو مرئياً منه فى الضوء سوى مؤخر منديل الرأس الأسود أما وجهها فكان كله فى العتمة، مائلاً منكفئا فى الفراش. وذراعها منثنية وكوعها تبرز تحت رأسها، وذراعها الأخرى ترقد قلقة متصلبة بين ساقيها الناحلتين المضمومتين اللائذتين ببطنها. "أتنادينني؟" لم ترد للمرة الثانية وظل الصمت. أقتربت منها أكثر فرأيتها ترتجف. انحنيت عليها ولمست جبهتها بيدى وسألتها إن كانت قد نادتنى. فزع وجهها ناحيتى وفتحت جفنيها فرأيت بياض عينيها مسعوراً يحترق. وسوادهما الذى استحال رمادياً باهتًا عاد يشخص للحائط ويبح:"لا" مبتورة ثم أطبقت فمها فسمعت أسنانها تطحن برأسها كله شيئا يستحيل طحنه.

" كفى.أنتِ تقتلين نفسك" ظل الصمت قائماً. واستمر صوت طحن أسنانها غير المجدى وعيناها تحترقان بمواجهة الحائط "كفى. كل ما تفعلينه بنفسك لن يعود لك به". تغير صوت الطحن استحال بعد أن لوت رأسها وخنقت وجهها بالوسادة طحن نحيب،

صارت تأكل نحيبها وتمزقه فى داخلها. ثم رأيتها ترفع رأسها وتشخص للحائط فى جنون. ثم تكف عن ذلك بسرعة وهى تغمض جمرتيها وتهوى خانقة وجهها بالوسادة ويشتد صوت النحيب الممزق فى داخلها، والنهش، ومحاولة التهام ما يلتهمها. واستحال صوت كل ذلك إلى صوت تنفس حادمتقطع ينفثه أنفها المحمر الصغير.

ظللت واقفا مواجها به فى داخلها، والليالى التى لا تنتهى ولا تتوقف ولا تكف عن الإتيان ولكنها لا تجدى، تجئ. ربما يرقد الزمن بينك وبين من ليسوا منك. لكن من هم منك يرقدون بداخلك، خارجك وخارجهم الزمن ولا أمل. غداً وبعد غد سوف يأتى ويجثم فوقنا كأمس وأول أمس، ثم يمضى تاركًا من يحل محله.أقدام مردة تأتى وتطؤنا ككل. ولا أدرى كيف تحملت كل هذا. ولا أدرى إن كان هذا يمكن أن ينتهى بالنسبة لنا. شددت عليها الغطاء وأخذت أكذب أمامها: "الله لا يحب ذلك. إنك تؤذينه هناك هكذا. اصبرى وادعوا له بالرحمة أجدى" توقف طحن النحيب وغاص فى الصمت. ربت عليها، ومضيت. أطفأت نور غرفتها فسمعت الطحن. توقفت لبرهة ثم شددت الباب وخرجت فتعالى طحن النحيب من الغرفة المغلقة كلها.

وبالليل جاءنى. امتدت يداه إلى كتفى بيضاء كما كانت. وقف أمامى وهو يربت على كتفى مرات عديدة، وشفتاه تستديران وتنبسطان ثم تلتصقان دون أن أسمعه وظلت عيناه أمام وجهى تبرقان فى العتمة ثم سال البريق فى خطين على جانبى فمه، ويده ماتزال تربت بحنو على كتفى. أخذت يده فى يدى، كنت أريد أن أعانقه لكنه لم يعانقنى. ظللت أتأمل خطى البريق الطويل على جانبى فمه، وشفتاه تعودان وتتكوران وتنبسطان. وأحسست بخطين ناريين على جانبى فمى وصحوت. قمت وذهبت للغرفة لأحكى لها عما رأيته فلم أجدها.

دخلنا بها فتركنا وراءنا الأصوات والضجيج الهائل. وظللنا نخوض فى الصمت. وسط الأرض التى ننساها فى الوراء. حبلى بالموتى. ترتفع بطنها بالأجنة الميتة فى كل مقبرة كالحة منتفخة مسدودة الثقب بإحكام.

وفى كل مكان تهرب إليه عين الإنسان لابد أن تصطدم ببطن فيه ميت. كانت البطون مكدسة ومنتشرة بفظاعة وتجاور مرعب. لكنه يبدو أكثر تجاوراً وفعالية من

تجاور الأحياء. هنا الزمن واحد والليل أو النهار واحد، والإنشاد أو الصمت واحد. كل منهم لا يملك أكثر من مساحة حجمه، بل من مساحة ارتكاز هيكله العظمى. هنا يحقق القاتل عدالته الظالمة بعدل. ولا يرفض أحد منهم التسامح مع وجوده كإله. ويستطيع أن يكون موجوداً أو لا يكون فلن ينتبه أحد منهم لذلك أبداً.

وقفنا أمام بطن منتفخ مكتظ بموتانا. كان الحفار قد عرى ثقبها فبدا مخيفًا يحيط بالرعب نفسه الذى أحسسته وهى مستلقية على السرير فى الركن المعتم، رافعة قمتى ركبتيها منزلقة بأسفل بطنها وردفيها نحوى فيجتاح الجفاف حلقى وأكاد أختنق عند رؤية الثقب الضيق الموحش فى عتمة اللامتناهية. كائن بمكانه فى سهولة المستحيل، مهيب فى الصمت مفتوح ومنتظر كما لو أنه يدرك تمامًا أنه رغم ضآلته وضيقه أخطر ما فى البناء كله، وأوسع ما فيه. ورغم ضيقه الظاهر فهو أكثر سعة مما يتصور من يقف أمامه. إنك مهما كانت ضخامتك فإنك لابد أن ترقد وتستسلم لسحبه القدرى لك، لا الرعب ولا الصراخ ولا التراجع يستطيع أن ينتشلك مما تسقط فيه. وعروها فعروه. والقماش الأبيض يتخذ مكان الشكل الإنسانى. يخلى الإنسان مكانه للمرة الأخيرة دون رجوع، يتخذ القماش شكله أمام أهل الميت. خداع قاهر يضطرنا للاقتناع به استحالة تصورنا للفقد المزدرى لنا. نفعل ذلك لنصدق أن ما تحت القماش هو ابننا. وأننا أوصلناه معه حتى أعدناه إلى الرحم الدائم بأن مررناه من الثقب أمام أعيننا، وسددنا عليه بالطين. وعندما تأرجحت قوائم الوحش الثمانى خلفنا ورأيته وهم يمضون حاملينه عاريًا من كل ماغطيناه به .كنت جالساوقدماى ومؤخرتى غائصة فى تراب الحفر. أستعيد مواجهة الضربة الثانية: قطعتنا بسهولة أكثر ومرت بسرعة. الأولى أجهزت علينا. رأيت ذلك بوضوح عندما عدت يومها بعد ما تأرجح الوحش بقوائمة الثمانى خلفى. وهو، فقدناه. ولن يعتم مدخل الباب بظل نوره ثانية أبداً.

كانت جالسة فى هدوء ساهم مستسلم، يداها متراخيتان فى حجرها. ورأسها مصلوب على الظهر المنحنى تحدق أمامها مباشرة فى لا شئ كما لو كانت تراه ولا تستطيع أن تنصرف عنه. رأيت جمودها أمامه فصعقت، واجتاحنى الرعب للمرة الثانية

حين اكتشفت فى وجهها حفرتين معتمتين. لم تعد هى التى ترانى. لم تعد عندما تدير رأسها تستطيع أن ترانى. بل لابد أكون أمامها مباشرة كى تتمكن من رؤيتى ودون ذلك تظل عيناها مظلمتين جدبتين. ولما أدارت نحوى عينيها أحسست أننى أسقط فيهما. اكتشفت فجأة أننا لسنا وحسب نسقط بالموت إلى الخواء، بل إننا مطاردون بالخواء ونحن نحيا، حين رأيت الوجه البشرى خاوياً، وأن ثمة حفرتين تحت الجبهة لا تختفيان أبداً، ولا تبدوان فى جماجمنا إلا فى ظلمة المقابر وحسب، ولكنهما كذلك كائنتان تحت الشعر الممشط فى خيلاء وفى البشرة الناعمة الخادعة للوجه البشرى الحى: علامة يحفرها الموت فينا ليحدد بها محصوله فى هذا العالم، منبتا فى عيوننا رؤى الذهول التى تمتد كحقول الفطر قاسية الألوان، مفتوحة القاع موجودة ومحيطة بنا حتى عدم إدراك وجودها، والدهشة كأعشاش الغراب، تنفتح وتبتلع كل ما كنا لا نندهش له. حتى البشر، أقرب الأقرباء صاروا يلتصقون بنا فنجتاحهم الأبعاد ويبدون لنا كأن لهم سطح الخارج الصلد. وأشكالهم التى ما كنا نتعارف إلا من خلالها، ونقع فى الخطأ، استحالت إلى أشكال جامدة تحت غطاء سميك من الجلد وكمية هائلة من الدهن هى التى تجعل وجوه الرجال وأقفيتهم ممتلئة، وسيقان النساء ملفوفة بالدفء اللامع، دهن كدهن أوزة ملقاة على قارعة الطريق وعنقها ملتوى تحتها، وفتحتا عينيها مغمضتان على الرماد، بينما تتعرض لأسنان كلب تمزقها. كان كائنا بجوار عظمة الساق، والعظمة رهيفة، ليست أبداً! ذلك الجدار الذى كنا ننتصب فوقه ونضع قبضات أيدينا فى خاصرتنا بزهو أمام خصم. ملقاة فى اللحم الميت بلا أى أمل فى معاودة الانتصاب تشخص فى اللحم الذى سقطت فيه وتصمت. وهو الآخر لا يملك أكثر من أن يفقد شيئا فشيئا حمرة الدم الزاهية ويستحيل إلى الزرقة الداكنة الثلجية ليتبدد حتى ما يبقى ميتا منا فى النهاية.

وارتعدت فى عنف لكن بلا أى حركة، الـ (   ) يزحف. الجليد أصبح لا يعطى سوى جحيم الجليد (   ) تجمدت أحزاننا وأختنقت بها ألسنة اللهب دون أن تنطفئ أو تبتعد. وأفيق إلى أننى قضيت أحياناً يوماً بكامله وأنا جالس فى مكانى، شاخص فى سطوح الأشياء أو سطوح الناس ببرود أخير ليس بداخله فجوة الحقارة، العدم،

الظلمة الخاوية الباردة، جبل الثلج الراقد بداخلنا والذى يتهاوى أمام الجحيم والناس يهرعون أمامى ويصطدمون أحيانًا بى. كنت ألتفت لهم وأندهش لبرهة ثم أغلق فمى وأهز راسى.ماالذى يفعل بهم هذا .وماجدوى هذه الضجه وهذا العنف؟ بالأسلوب نفسه مات رجل كان يريد أن يدرك القطار فتعثر فلم يصح حتى ليرى نفسه تحت العجلات. أخذته على غفلة منه وأنهته بسرعة. لما جرى كل ذلك؟ ربما لأنهم يحاولون الهروب من الوقوع فى خطأ يومى فيركضون بأنفسهم نحو خطئهم الأخير. "مات الرجل المكافح ناقص العمر". هكذا علق الذى نقل إلىَّ الحادثة. ذلك المعلق مخدوع. ماذا يجعله ينطق بهذه الأكذوبة المتداولة؟ أن أحداً فى العالم لم يولد ويترك ليحيا كامل العمر أبدا. كلنا نحيا بلا أعمار. إذا لم نجر وراء القطار لنموت تحت العجلات سيحدث أن نمر من أمام القطار ليمر فوقنا. بل حتى إذا اختفينا فى المناطق النائية البعيدة عن كل القطارات فسوف يجئ بلا قطار. إنه يأتى كما هو.

التفت مندهشًا إلى رجل يمضى أمامى وفمه مفتوح على اتساعه، وأطرافه تتحرك بعنف. لويت شفتى ورحت أسأله عما يفعل. استغرق أكثر فى فتح فمه والاهتزاز بعنف والتلويح بقبضته.

قلت ماذا تفعل؟

هدأ قليلا ثم حدق فىَّ بشراسة وأمسك بكتفى:

ماذا تريد؟

قلت ما هذا الذى تفعله؟

عاد ينطلق فاتحًا فمه إلى أقصى اتساعه ورفع يده وهوى بها على كتفى ثم أدارنى ودفع بى بعيداً. رغبت للحظة أن أسبه لكنى لم أفعل. قلت لنفسى أنه لا يستحق السب، فسيكف عن كل شئ فى يوم ما. أنه لا يرى ما يجرى خلفه. لأننى كنت أرى ما هو مفتوح وينتظر فرصة يشده فيها من قفاه ليغلق فمه بشده ثم يعود ليفتحه صارخًا بلا جدوى. تنهدت وسئمت وأنا أحاول أن أبقى على اهتمامى بالناس لكنى شيئًا فشيئًا فقدت الرغبة واقتربت من الصقيع.

كانت العتمة تصوت فى المجرى بخفوت آسر دائم تحت كل صوت طارئ. والريح تطوح برءوس النخيل فى عزيف حاد أسمع فيه بصعوبة مرورها بين السعف والجريد، وصوت الرءوس السامقة المنتصبة والريح تميل بها وهى تقاوم. بعد فترة تهدأ الريح. تصمت فيطفو الصوت الذى يجرى دائمًا، صوت العتمة فى المجرى. تشحب فيه رءوس النخيل التى تحاول أن تستعيد انتصابها لكنها لا تستطيع أن تستعيد كبرياءها. لقد رأيتها عارية مرة، وأية محاولة لاستعادة ما قبل العرى محاولة يائسة لا تثير سوى الرثاء الأجوف.

اغتصبت ريقى وأنا أحاول أن أجلس دون أن أتهاوى. كانت راحت يدى منفردة على الحافة الداكنة وأصابعى متباعدة، وكل إصبع بدا ساكنًا مهمومًا. ثقيلًا على الأرض، معلقًا باليد لسبب ما، لكن ما لا نستطيع الشك فيه أنه غدًا سببًا أحمق تجاه الرغبة فى الانفصال والتباعد والارتماء وحده. ولو أن شكله لا شك سيكون غريبًا. بل قد يستحيل فجأة من مثير للشفقة وهو مبتور ودائرة العظم البيضاء ينهال عليها اللون الأحمر من دائرة اللحم المقطوع إلى مثير للاستغراق فى ضحك مكتوم وهو ملقى وحده بعيدًا عن الأصابع المعلقة باليد كجراء هزيلة مقيدة، فقدت من طول ارتمائها فى القيد، ليس الرغبة فى المغادرة وحسب، بل حتى الرغبة فى النباح. وبدت الرغبة فى الانفصال أكثر منطقية من هذا التجاور اللامجدى، من التعلق من مؤخرتك ضمن مجموعة عناقيد من الكلاب.

انتبهت إلى دائرة القمر المهتزة البيضاء وهى تصوت فى المجرى بدلاً من العتمة. عبثت يدى بصلابة الحافة الداكنة فانفصلت كتلة رطبة من الطمى، حملتها وبدأت أكورها كرة صغيرة ثم صوبتها وأطلقتها إلى دائرة القمر المهتزة. لم تصبه. أخذ يتأرجح بهدوء انقطع حتى أطلقت عليه الثانية وبعدها الثالثة فتأرجح بعنف وأعتم داخله واتسع ثم سكن وعاد يصوت فى المجرى.

تنهدت بحزن: من العبث أن نصل إلى القمر مادمنا لم نصل إلى الإنسان. ولبثت ساكنا أتأمل هزيمة النصر الذى يرفرف خادعا علينا.

وفى العودة رأيت رجلاً وامرأة يسيران معًا، كانت عجوزًا تتكلم ببله وهو يؤيد كلامها بهزات بطيئة من رأسها ثم ضحكا معًا، يومًا ما سيفقد أحدهما الآخر. حزنت لأحدهما الذى سيفقد الآخر. وبدأت أحترق وأنا أذكرها والجحيم يعود ليتقد فى ألسنة الجليد. والـ(   ) هو؟ غصت هربًا منه فى شارع مزدحم وأحسست بالجوع. رأيت محلا لبيع اللحم ورأيت أمامه رجلًا يشترى لحمًا ويشير للبائع الى ما يريده وامرأة ساكنة منتظرة بجواره.كان البائع قويًا أمسك بالسكين وتناول ساق الحيوان المذبوح المعلق من مؤخرته وقطعها. والرجل واقف وعيناه مفتوحتان بكل جوعهما. سيلتهم اللحم الليلة، وفى الصباح يقضى اليوم منشغلا بوجبة أخرى.

حين وضع الخادم أمامى طبق الفاصوليا الخضراء كدت أصاب بقئ. رأيت الفاصوليا أعضاء كائن ملقاة فى طبق. تعاميت، لكننى عندما رفعت اللقمة وعليها أعضاء الكائن لم أستطع دفعها حية فى فمى فأعدتها إلى الطبق وشربت ماء، وقمت أتجول جائعًا.

الـ(   ) أرهقنى. لا أستطيع المواصلة فى هذه الرؤية. الإصطدام المتكرر بكل ما حدث وسبق أن حدث: وقع الحريق. إن لم يكن قد وقع بالفعل وزحف فهو سيزحف حتمًا على كل ما يبرز خاليًا من الصدأ ويأسرنا. هذا الـ(   ) قيح طاعون دائم. عالمنا يبدو رمادًا ملوثًا بالدم. يهطل من الشمس ويسيل من جراح الأرض ثم يأخذ شكل الـ(   ) هل قلت الإنسان؟ لا. إنه يأخذ شكل الاحتراق، وحركة الضوء الموجود المتسلق الصاعد لفترة تكتشف بعدها خدعة الـ(   ) لنا. لعيوننا. لأيدينا. لأحضاننا. لتساؤلنا المرفرف دوما، المنهك من التحليق، الخائف أن يحط على الـ(   ) ويجتاحنا بصقيعه الجهنمى على حين غفلة فنقع فى الـ(   ) ياللآسر الذى يوقظنا. هل نصحو، لا. إننا نفتح عيوننا فنرى الـ(   ) ليس سواه مطلقًا. وذاتنا مفتوحة وباب الصخر الوهمى الداكن يرتفع من ورائنا، ونلتفت. نلتفت وحسب لنرى فنفاجأ بالـ(   ) أبدًا لا داعى للتكران، فليس ثمة جدوى. فالـ(   ) لم يعد يتوقف على اعترافنا أو ما نفعله إزاءه. ليس أن ننكر، ولكن ندع أنفسنا بلا مقاومة كاذبة. لا يجوز ألا تشغلنا أية حركة

لا جدوى منها. إزاء الـ(   ) وحسب، نحاول السكوت، ونرى. يجب أن نرى. نحترق بالرؤية ويشتعل الـ(   ) فى عيوننا. بل فى داخلنا. السكون. للـ(   ) البوذيون يصنعون ذلك. رأيتهم يظلون بالنار فى أماكنهم بلا حركة. حتى يتسلق الـ(   ) كيانهم. والسواد خلف الجحيم. من عند السيقان إلى البطن إلى الصدر إلى الوجه إلى الرأس إلى الـ(   ). انفجرت الجمجمة. ذلك أجدى؟ أبدا. ربما أقل خسارة؟ لا. ربما أكثر رجولة؟ شجاعة؟ أن ننفجر ونحن نرى الـ(   ) يا له من معاند، كبرياؤنا. أقل الأشياء زيفًا. سوف يندفع نحو الـ(   ) وتنفجر الجمجمة. المهم ألا نسقط بظهورنا. أن نسقط والهوة أمامنا. الغرور الذى يقودنا إلى مذبحة أن نواجه. فربما لو كان فى هذا العالم الذى شبع موتًا، شاطئ ما، يختفى الآن أمام العيون المفتوحة التى لا ترى إنها مسدودة الخلف، لو ثمة شاطئ، فيمكننا أن نبدأ بالتفكير فيه من الآن. قبل أن يأتى الـ(   ) ونسقط. نستمر فى السقوط. أن نبدأ بالتوقف. بمحاولة إزاحة الأبواب الوهمية الداكنة خلفنا تحت ظِل فترة تأمل. وربما نضطر للرجوع إلى الوراء، متراجعين عن العمى، متخلين عن العيون التى لا ترى والأيدى التى لا تملك.. للوراء، أقصى الوراء، عبر تدفق الظلمة، وشلالات الزمن المشتعل، لو تحملنا ربما نعود: نعثر على النصاعة الشاسعة (   ) نائمة فى التذكر. وأضواء القمر الشاب على عذرية الرمال المترامية البيضاء. حيث يمكننا أن نرى. نطلع على البداية. تعرف ان كان أرنبا بريًا ذلك الذى يعدو فى الضوء أم التواءات أفعى، دون أن نفتح عيوننا لنرى، وعبر كل المسافات الهائلة نبكى لكآبة عبور طائر مهاجر فى صمت. وأجنحته تحمل عبء المسافات الغريبة فى القلب الذى ناء بوجوده عالمه. ربما لو استطعنا العودة أمكننا أن نرى من أين يبدأ الـ(   ) بجحيمه وكيف يزحف فجأة بتؤدة مرعبة نحونا حتى الصعود واجتثاث رءوسنا. لو أمكننا أن نحاصره! وتلاشت المسافات الهائلة، ورأيت الباب الهائل ينفتح أمام سنابك الجياد المغطاة وآذانها مدلاة. ستة جياد تجر عربة مذهبة رسم حولها بالخشب المموه بماء الذهب ملائكة! وفى جوف العربة تابوت فى جوفه ملابس كاملة فى جوفها جثة من كان صاحبها. وبرقت اللحظة فى رأسى بملايين الجياد تتجه إلى (   ) تجر جثثنا وتدخل بها بوابات هائلة ثم تخرج نافضة آذانها

بدونها، عبر جدران البحار والأنهار والغابات والجبال: جياد تشد القتلى، قدنستطيع الشك فى أن هناك فى هذا العالم إنسانا واحدًا يملك سعادته فى هذه اللحظة، لكننا لا نستطيع الشك فى أنه لابد فى هذه اللحظة. رجل يقفز صاعدا للعالم الأزرق ويراهم، ويحاول أن يفلت فيفلت من عينيه ويمسك به الـ( ) وتنتشر الأمواج حوله صاخبة بينما يسحبه القاع. وامرأة تحترق أو تقتل تحت عيون أطفالها، وهم يحدقون فيها بصمت. وأبناء ينتظرون آباءهم فإذا بهم ينتظرون الـ( ). عثر عليهم قتلى تحت العجلات، أو منطرحين بالضربة أمام مقدمة سيارة أو قابلهم الـ( ) فسقطوا وحدهم عندما كانوا عائدين إلى أطفالهم فى غبطة. وآباء خرجوا بعد ما وقف الضرب المجنون يبحثون عن أطفالهم وزوجاتهم فلم يجدوهم ويحاولون أن يطيلوا مدة البحث هربًا من العودة للعثور على الـ( ) وتنطلق غربان الأصوات تحوم على مدن بكاملها تنفتح الأرض تحتها لتلتئم مرة أخرى وكل سكانها مختنقون بالداخل. وغرقى يدوم بهم موتى فوق وجه الطوفان، وعبر كل جدار لو رفعته سترى الـ( ) حدق جيدا فيما تراه فقد يكون جثتك. اتحدى العالم لو حدث ورفعنا جدران الاحتماء المزيف وأبوابنا الوهمية أن يملك أحد الجرأة على الاحتفال بأى حدث. ارتداء ألوان الفرح الكاذبة والتباهى بها. بل أتحدى لو جرؤ أحد ووجد الرغبة أو حتى القدرة دون رغبة على أن يفتح فمه بفتحة مستطيلة سافلة على جانبى وجهه. أقصد يجرؤ على أن يستطيع الـ( ) ما كان هناك فى الماضى، ما كانوا يطلقون عليه الـ( ) آه. الابتسام( ) الكلمة القديمة فى الأسلوب القديم! من قال هذه العبارة: "أسلوب قديم. كلمة قديمة"؟ آه تذكرته: صاحب الابتسامة المفقودة(*) يوما ما كان مثلنا قبل صحونا على الـ( ) كنا نملك الابتسامة. لم تكن سافلة كما تبدو الحركة التى تشبهها الآن. كانت رائعة وكنا نملكها ( ) لكننا فقدناها. انزلقت من الكلمة. أصبحت الكلمة بعد ذلك بيضة خاوية. بناء يرى من الخارج. لكنه فى الداخل فقد كل ما كان البناء له. تكفى لمسة واحدة لتتهاوى الكلمات بعد ذلك فى الـ( ) تعرت الكرة البيضاوية وفقدنا وجودنا المحفور على الصخر.

(*) ما يراه الراوى فى مساحة الصمت هو الوجه وليس الاسم أما الاسم فهو: "صمويل بيكيت".

رأيناها جداراً من الكلس الهش ورأينا أنفسنا نرتجف كالظلال. ونمضى ولا يتبقى منا سوى الـ(   ) ليس سواه. وإذا حدث وتبقى وظل منتصبا بعدنا هذا العالم فلن يحتاج إلا إلى أيه حقارة تصطدم به لتهدمه وتطيح ببناء الزيف المشدود بالـ(   ) يا للخواء الذى كان قائما له شكل القلاع وحوائط اللاشئ.

وأخيراً حان الصمت(   ) لا. حان صمت الصمت. بعد حركات الفك المتوالية والتضرع والتساؤل أمام الـ(   ) وإقامة الطقوس الأخيرة. الطقوس التى عريناها فجويهنا بالـ(   ) الصفعة السوداء للوجه البشرى المخدوع. الوجه الذى كان يشخص، يتكلم، يرجو وهو يمضى يحمل فى داخله مشكلة غياب الإجابات. فإذا بالـ(   ) يأتى. يدمر ثم يحرق كل شئ. حتى الغرق الأخير الدائم. هل عانيت أن تغرق فى ذعرك الدائم؟

طرفت أهدابى. العيون المتراجعة للداخل تحت ثقل الجفون المحترقة والفم الجاف الذى يدهش الآن للأيام البعيدة وقتما كان يتكلم. ينطلق صوته بسهولة، واللسان الراقد وسط الذهول، وأمامه كل الكلمات كأغنام كثيرة راقدة وهى ميتة لا تأتى، تاركة معاناتنا عارية تحت أقدام الخطى التى تلوثنا بالصدأ. الخطى الداكنة التى بعد ما أفقدتنا الفزع السريع، تركت مكانه اغراقنا البطئ الدائم، لدرجة أن الإحساس فقد الانتباة لها: خطى لا يمكن مواجهتها، تأتى فى لون الرماد العديم اللون، والذى يدرك تماما أننا فى أسره، فسواء سرنا بهدوء أم جرينا بالفزع، أم هوينا فى النوم فنحن عائدون له فى النهاية بل نحن لسنا عائدين، لأننا لم نغادره حتى نعود. إننا فى القبضة. تحت الحراسة الدائمة للغزو. قوة غريبة فى مظهر ضعفها القاتل الوحشى، والأكثر وحشية من عدو يواجه، بطيئة حتى فى الابتسامة الساخرة النائمة المتئدة الواثقة من نهايتنا التى لا تستحق حتى أن تصحو، فهو أبدا لا يخطو. نحن الذين نخطو. نحن الذين نقوم باللعبة كاملة: نراه فنفر ونعدو ونلهث فى العدو ونتعثر ونبتعد فنقترب. رغما عنا نحيا نحيا نحيا. فماذا بنا يا للابتسامة السافلة نموت نموت نموت. بجوار السيقان تماما. بجوار الـ(   ) عراة تحت الظل الطاغى البارد. والتفت مبهور

الأنفاس من العدو والذعر وأصغى لـ(   ) أبداً. لاشئ وراء كل هذا . ليس ثمة خطى. الظل طاغ بارد حقيقى. ونحن حقيقة عارية تحته. لكن ليس ثمة من نتحداه، نتمرد عليه، بل حتى عندما أستجمع وجودى المخدوع المهان وألعنك يا(   ) لا أجدك. لا ترد على سبابى لك. وأنت لا ترد، لا تعاقب، ولا تختفى وحسب، بل إنك(   ) كم أود لو(   ) بل كم أود لو أصرخ بكل صوت العالم الأخرس لأصفعك لقد صعدت أكثر الجبال وعورة لأتكلم معك، فإذا أنت لست موجودا. لا أقصد ذلك. إنك لست موجوداً وحسب، بل أنت(   ) لا. ولا حتى هذا: (   ). إنه أكثر امتلاء منك هذا غياب. أنت حتى لست غائبًا. ولست حتى لا شئ. أنت عدم اللاشئ. لا. ولا حتى هذا. كم كنت أود لو كنت موجوداً. ماثلًا واعيًا لأقول لك: إنك أسوأ من أى قاتل فى كل العصور. كم كنت أريد أن أحمل جمجمته. أذهب تحت نار الشفق وأحفر معريًا الثقوب التى نسدها، بأصابعى العشر كذئب. وأحفر وأنا أتلفت حولى، أهدم الستر الخادع الذى نقيمه وأدخل. أتحسس القماش الممدد وأجره لك. ثم أجرها كذلك. وأقول لك: تصور الآن أنك أنا. هذا ليس مستحيلًا، لكن لأنك لا تستطيع أن تكون أنا. ثم لأننى لو تصدقنى أرفض أن أكون أنت. كفر يوجد اللعب ثم يحطمها. ربما تكون اللعب لا تتألم، ينكسر عنقها وتسقط دون أن تصرخ، وأنت لا تفكر بأنها تتألم أم لا. لكن نحن، ماذا عنا نحن؟ كنت أريد بذلك أن أجرهم أمام القبر. تحت نار الشفق المستعر، ولا أدع أحدا يرى، لأنهم يقدسونك. ولا يخترقون حرمة حصارك لمن أتوا إلى مملكتك. وأمددهم متجاورين. وأقف بينهما ثم أشد الغطاء من فوقهما معًا. وفى اللحظة نفسها، مرة واحدة. وأتحداك أن تتخذ مكانى. ومرة واحدة ترى فيها كل كفاحك وكفاح آبائك وأجدادك وجنسك كله مكوما تحت نار الشفق هكذا فى صمت الجمجمتين. هل حدث فى حياتك أن حدقت فى جمجمة من ملايين الجماجم التى تنثرها فى العالم؟ لايبدو ذلك؟ آه يا (   ) كيف أتصور أننى أتكلم معك كما لو كنت موجودا. كم أود لو كنت موجودا لأجلدك على فعلتك. انظر إليهما معا. إلى ما صنعت بهما. كثير ذلك؟ إذن انظر إلى واحدة. هذه أم هذه؟ أنا لا أعرف. اختر لك جمجمة لترى فيها ما فعلت. انه لا يوجد هنا. ولا هى كذلك توجد هنا. أسرع

قبلما يحترق الشفق. قبلما تفقد القدرة على الرؤية. انظر. نعم. هكذا من الخارج كغر جاهل قاس يحميه ترفه ولا مبالاته. انظر. ما هاتان الفجوتان؟ إنهما مكان الرؤية. هل تتصور أن العالم كله كان يتسرب إلىَّ من فتحتَىْ هاتين الفجوتين اللتين تضيقان شيئًا فشيئًا حتى تنسدا؟ تصور أن تستحيل جماجمنا التى كنا نبتهل بها بلا غطاء؟! والفم الذى دمرته. المكان الذى عرف صوت حبى القديم لك. وأصبحت أود أن ألعنك منه، أسبك. أصرخ فى وجهك، أعلنها، موقظا بذلك جليد جحيم العصور كلها فى وجهك. حاملًا جثة الماضى التى لا تنتهى: ذنبك الدائم. جثة الكائن الذى اغتلته، وما زال وسيظل دومًا فى منتصف الظهر أثر ضربتك لو كنت (   ) تصور أن تستحيل إلى ما وسط الكفن الممدد هكذا. ملقى فى قاع مقبرة. فى الظلمة. تصور أن تنسحب من النور. كل النور فى العالم. النور الممكن والنور المستحيل. ثم نهبط بك بعد ما تحمل ضربتك التى ستقضى عليك فى هذا الركن المعتم، ثم عندما أسحبك أنا من الداخل هكذا، من الظلمة الأبدية إلىَّ تحت الشفق. ولا تستطيع أن ترى نور العالم المحترق. تشخص بمحجرى عينيك ولا ترى. لأنك فقدت عينيك. لأنك (   ) آه. لا يمكننى أن أكون أنت.

آه. الـ (   ) غرنى. أحسب أنك فى داخله. نسيت أنك حتى لست الـ(   ) لو كنت! كنت قد أفرغت كل ما أحمله من رغبة الآن فى جلدك. لم أكن لو(   ) لأفعل مثلك وأضربك على ظهرك من الخلف. أبدا يا(   ). لا للأسف. (يا) وحسب. منتصبة تجاه صمت الصمت. ليس أمامها شئ أو لا شئ. كم كنت أود لو أسوطك يا. ليس على ظهرك حتى أقصمه، لكن على وجهك. أتعرف أين بالضبط؟ ليس على الخدود المزدهرة على قرابيننا. لكن أين؟ بالضبط فوق حاجبيك المقامين ببداية الجبهة المتغطرسة التغطرس المنتصب فوق عينيك اللتين لا تريانا. كنت سأعميك من الضرب وأجعلك تكف عن الرؤية. إن تفقد الرؤية أفضل بكثير من أن تفعل هذا وأنت ترى ثم لا ترى. لو أفقدتك رؤيتك المزيفة، ربما أمكننى أن أغير مجرى العبث فى هذا العالم العابث مثلك. أتعرف كيف؟ بأن أجعلك أنت بعد أن أفقدك عينيك اللتين خدعتاك حتى الآن تسأل. تصور أن يتساءل السيد وينتظر إجابة ممن وافق أن يكون العبد؟ تصور

ذلك ولو لمرة واحدة. وليس سؤالا، بل استجداء صارخا. ربما.آه كم كنت أريد أن أصفى معك فى هذا الجحيم كل شئ. فربما تيقظت.كان بودى فقط أن تصحو على صوت لعنتى لك. وضربة سوطى. وترى رغما عنك هيكلى العظم اللذين يرقدان تحت نيران الشفق، يواجهانك بطيبة. باتهام صامت يواجهانك. وعلى العظم، من تحت الجلد المنتزع الذى تلاشى، بصماتك يا قاتلهم المؤله

كان بودى ألا أعيدهم. انتهينا. فقدنا خجلنا. كنت سأقول لهم لا يجوز أن نخجل مما يصنعه هو. لكن مما تصنعونه أنتم عندما تستحيلون إلى آلهة. لكنكم مازلتم تموتون كل يوم. كل لحظة. كل كل.

أنت (   ) آه، لست موجودا حتى أقول كل شئ. نسيت أننى أخاطب نفسى. تصور أننى أقوم بكل هذا الذى لا ينتهى وسط كل هذا الخواء؟ وإننى أرانى من الخارج. وأنا أتوجه إلى ناحية ما، وأظل أتكلم، أحرك ذراعى ثم أتوعد وأهدد ثم أكتشف الـ(   ) فأصمت. ثم لا أطيق الصمت وأعرض على الـ (   ) لا. أنت لا تتصور. ولا جثتاى اللتان فقدتا صاحبيهما تتصوران. حتى لا تتصور! أقصد أن أقول. لا. لم أعد.أقصد شيئا ما دمت أنت (   ) لا. لماذا زرعوا هذا الوهم فى داخلنا. ثم ماتوا تاركيننا نحاسبك فلا نجدك؟

آه يا(   ) لماذا أتكلم الآن ما الجدوى؟ اذن لماذا أسألك عن سبب السؤال؟ لماذا لا أصمت؟ لماذا وأنت غائب لا أصمت؟ أدخل جلدى وأتكور كقوقعة فى أعضائى. لماذا؟ لماذا؟ لماذا لا تحط الـ(لماذا؟) هذه الآن. لماذا لا تكف عن الرفيف حتى فوق هذا الجحيم؟. احترق الشفق تماماً؟. لمن أقول ذلك؟ هيكلا العظم لن يسمعانى لمن أذن أقول ذلك؟ السماء. لكنها فقدت حتى الصمت وأخذت الأبعاد تجتاحنا.

يخنقنى الصمت. وأظل أنصت: خواء الصمت. وحدى لا أراه. ليس سواى وهو (   ) تحيط بى ألسنة الجحيم الجليدية(   ) لملمت أطرافى وجلست ضممت ركبتى وحملت يدى فى حضنى. وظللت حاملاً رأسى. لن يرى. ولا أى أحد اللعنة. لكن على من سأصب لعنتى؟ كنت أود لو(   ) ربما كنت، بعد التمرد، بعد أن ألعنك وأصفعك

بالسياط، وأتخلص من كل ما تحملته بسببك، ربما كنت أحببتك! أتعرف؟ على الأقل، رغم كل الكراهية والعناد، ورغبة كل منا فى القضاء على الآخر، إننا كنا سنكون اثنين. أن أصيح يا: وتكون قبالتى. قد تحكم على بالجحيم وقد أحاول أن أحطمك، مثلما حطمتنى. لكننى فى النهاية ربما كنت سأحبك. آه يا( ) لو كنت موجوداً! كنت تكلمت معك الآن، ربما كنت قلت لك عن كل ما أحببته فيك من قبل، ومنعنى عداؤنا عن أن أبوح لك به، وكل ما كرهته كذلك، وكنت أحب أن تعرفة حتى تكف عنه فتكون رائعاً كما، أريدك، وأفضل من كل شئ، أننى لم أكن لأكون وحدى هكذا. يا( ) لو كنت موجوداً. كنت رأيتنى على الأقل، حتى ولو كأعداء. لكنك( ) لا. لست. حتى لن أعود وأقول لك إنك لست هناك. لن أتيقظ ثانية ويدك هى التى تشعل الجحيم فى العالم ليسقط فى الـ( ) أبدا. سيظل مشتعلًا وحسب ولست وراءه. وستبرد اللعنات. ستتجمد كدماء جامدة فوق شفتى لأنك لا تسمعها. أنت يا ( ) أم هو. أبدا. انقضى الزمن الذى كانت أنت فيه روعة العالم استحالت إلى: هو. أصبحت هو. لا. ليس حتى هو. ربما: أنا. لا. ولا حتى أنا. بعد ما أختفت "أنت" وتبعتها "هو" ماتت "أنا" كزهرة لم تتفتح وجفت بها الساق.

سقطت شفتى السفلى مثقلة بالحسرة، ومضيت أتجول فى أرجائى الهامدة: يدى قدمى. ساقى. ذراعى. جمجمتى. ودوائر الصدأ الراقد أثر الحريق، يأسر الرغبات فتموت كلها فى مكانها.

وحدكم فى صحن هذا السجن. وحدكم تشيخون. وحدكم تتقوسون. وحدكم تنحنون حتى الانكفاءة الأخيرة التى تقترب بعد هذا الانتظار. لست أدرى كيف ستكون. لكننى أعرف أين ستكون. وعلى أية حال ستكونون وحدكم. وحدنا إزاء الـ( ) يا للجحيم فى صمت هذا السجن، سنموت هكذا. وحدنا. مات فى البداية هو دون أن يشرب ماء. وسنموت نحن دون أن نبلل لساننا بالكلام مع أحد. حتى الكلمات الأخيرة فقدنا نعمة الارتواء بها. سنموت بلا كلمات يا( ). متى ننسى الـ( ) وننسى الـ"يا" بلاحزن؟ ونستدير للداخل. الانتظار فى الداخل ( ). ليس ثمة خارج.

غاض الخارج، ذهب ولم يعد وراءه عالمه. تلاشت النعمة بكاملها. لم يتبق مكان نتجول فيه. نهرب منه. محاولين الهرب أمام زحفه. مات "هو" أولًا. فسقطت رغبة الرغبات: خلــودنا المكن الوحيد. تكومت محترقة بالقاع ثم اختفى هوو عالمه.. آه لو.. لا.. أقصد(   ) لا، لم أعد أقصد شيئا. أود لو أتعود فقط على الصمت هنا( ) فى هذا الداخل(   ) هذا المريع(   ) وسط آلاف الألسنة الخرساء الزاحفة من أفواه الأفاعى الجحيمية(   ) مستحيل(   ) حدث الانزلاق الخطر وها نحن نتدحرج للنهاية السحيقة(   ) تدور وترتفع فوق ظلمة الحوائط المتقدة المستديرة حولى، تتلوى، زاحفة نحوى(   ) يا. (   ). لا. لو نتعود غلى الصمت هنا(   ) لا. أبدا. فى الجحيم: لا كلمات ولا صــمت. يــا(   ) الجحيم!(   ) الجحـ(   ) الجـ(   ) الـ(   )
(   ) (   ) !(   ) ؟(   ) ؟؟(   ) (   ) (   )

(نوفمبر ١٩٦٦)

(نشرت بمجلة أدونيس: مواقف ١٩٧٠)

شلالات الكهف الداعر

أذكـــــر عـن نـفـــــسـى
أننـى لقـــيت المجـــد فـى حـــبك
وهـا أنا ضـائع فـى لا نـهـائيـة الليـالـى
يـــا يـأسـا يـزداد بـلا انـقـطـــاع
ولـم تـعـــد الحـــيـــاة عنـدى،
وهـى حـبـيـســة فـى عــمق لهـاتـى
غـــيـر صـخـرة من الصــرخـات

انجارتى

(ترجمة : عبد الغفار مكاوى)

ماذا تبقى منا حتى تجتاحه بتدميرك يا ألق العثور المترائى فى الوهم، يا خطوى الآتى المتراجع، والجياد الجامحة تجتاحنى فى الرياح المبتلة بشوارع المدينة، والسماء، شتائى الدائم.ولا أمل فى بزوغ حناياجدارووجهها المعتم فقد لمعانه واجتاحه الصدأ، نفس اللون لكن بلا لمعان. مُحكَمةَ الدوران حول الأرض، غطاء للغرباء لا يمنحهم سوى العرى أكثر. والتجول حتى الانزلاق مع شوارع المدينة نحو البحر، فكل شـوارع المدينة منزلقة دائمًا نحو البحر، ومهما هربت فى جوف المديـنة فأنت فى قمة مواصلتك للهروب، تجد نفسك فجأة فى شارع يتدلى بك هكذا نحو البحر.

أدرت راسى مستجدياً حب المدينة فلم أجد. وقت جموح الجياد الباردة لا تكون هناك مدينة. كانت الشوارع بالفعل تحت صوت سنابك الجياد، لكنها لم تكن شوارع المدينة. جعلت أحاول دائماً السير الى جوار الحوائط برغبتى فى الاحتماء. لكنى ما وجدت أبداً حائطاً أحتمى به، وأسير بجوار البيوت متعمداً أن أحتك بقمة كتفى، وطول ذراعى، وباطن يدى بحوائط البيوت، لكنها تبتعد دوماً متعالية لتتكوم موصدة بإحكام على من بها، والعرى البارد يظل دائماً بينى وبين الحوائط.

وتأخذ فى لطمى الريح بعنف فأسرع راكضاً. أعبر التقاطعات بسرعة وأتوقف فجأة فى أول كل شارع. أنظر إلى نهايته الغامضة وأرى خطاً صلباً قاسياً لا ينحرف نحو أية كومة من الأكوام الحارة المضيئة بالداخل، والمتزاحمة على ناحيتيه، بل يسرع بى بارداً نحو البحر. وأرغب فى النكوص لكن إلى أين؟ وأخجل من الوقوف فأسرع كما لو كان كائن ما لابد فى انتظارى. وأظل أغذ السير حتى أنتهى إلى اللهاث، ووجه ما لا يغادرنى أبداً. والشوارع العارية من أى قدم تهبط بى نحوه، وأظل أخب فى الرمال اللينة، حتى الرمال الصلبة، حتى الوجه البارد الدائم. لا مفر. هكذا، ودائما، نخوض فى عدم البداية. عتمة الذى لا يبدأ ولا ينتهى. المحدود المسطح فى الخارج والمستحيل فى الداخل. قرب الفظاعة المسعورة: عتمتك. وبروز الصرخات التى تشهق وتقفز طافية ثم تسقط مختنقة فى قبضة الصمت. ونعدو وليس ثمة منفذ. ما تملكه حتى الآن لا يعدو جسد الرغبة، ومع ذلك لا تكف عن التجوال والبحث فى العتمة. ونتذكر ما يحكى عن ضوء العالم. أبدا. ليس ثمة ضوء يجسر على اختراق عتمتك. لا مفر من أن تكافح للضوء وسط عتمتك. هكذا. بلا بداية. ودون أن يشاهد لك أحد. بل حتى دون أن يشاهدك أحد.

والتمع حاداً وجه البحر. ككل يوم. ضائعاً إزاءه دوماً. والضباب هو الوحيد الذى يرى. متشابهاً معلقاً فوق الدكنة المتلاشية فى داخلها. ورغبتى لاتتعدى برودة البشرة أبداً. طائر يحوم لأمد طويل، يصنع الدوائر التى تبدأ عالية واسعة ثم تهبط وتضيق لتصبح أكثر ضيقاً وانخفاضاً وأكثر قرباً وسرعة، ثم يدوم دفعة واحدة على ألق فرح.

وما تلبث مخالبه أن تبتل بالموجة حتى تتلاشى. ولا يستطيع الطائر أن ينفذ إلى أكثر من حدود رؤيته.

فوق الرصيف الحجرى عاد الخطو يزحف رغم عبث الزحف. والرغبة مقطوعة الرأس ومع ذلك تحس بالأجساد الحارة المتوجة بأزهار الشعر ملفوفة بإحكام فى المعاطف الجلدية الواقية من المطر. والجوارب الصوفية الملونة، والأحذية ذات الكعب المدرب على العزف، والقفازات والوجه: النافذة التى ما كان ينبغى أن توصد أبدا، أكثر انغلاقا من كل نوافذ الجسد. مشدودة القيد فى صحن الألوان، والبسمة المتداولة المطفأة مقسمة بالتساوى على جانبى الفم. والعيون تبدو ولمعانها طلاء. ساكنة فى الوجه كعيون لعب الأطفال، ليست مهمتها أن ترى بقدر ما أن تحتل مكانها فقط لكى يكتمل الوجه. ودائمًا، كانت الوجوه تمضى فوق الطوار كاملة كوجوه الموتى.

وأواصل الزحف لأننى أخشى التوقف، كانت فى داخلى حية، ما أن تحس بى واقفا حتى تمد أطرافها الاخطبوطية وتنطلق فى فراغ الغرفة فوقى. وقبل أن أفعل ما تجبرنى عليه كل يوم، قفزت بها إلى الرصيف، لم أجد الرصيف مختلفا عن الغرفة. الرصيف فقط أكثر ضوءًا، وذلك ما يخيف الرغبة. يجعلها تتجمع خشية الضوء الحاد. ولذلك أقضى بها كل اليوم فى الخارج. وعندما تنطفئ المصابيح فى الطرقات لم يكن ثمة مفر من العودة.

لكن ما حدث كان جديداً، عندما كنت أزحف محاولاً الابتعاد عن البحر انتبهت بغتة على اصطدام معطف جلدى بى. وامتعاضه من وقوفى فى طريقه وسط الطوار. لابد أنه انفعل، لأنه ظل مديراً إلى رأسه، ودائرتا السواد فى عينيه تبرقان بسرعة مع حركات يدية واهتزازات زهور الشعر ووجهه يحمر بغضب فى وجهى. كان وجهه قبل ذلك كالح البياض لكنه لما أخذ يحمر صرت أتأمل ذقنه بحركته السريعة وخديه يغمرهما فيضان الدماء المفاجئ. وعندما توقف كل ذلك وهبطت يداه بالقفاز غائصتين فى جيبين على جانبيه عاد وجهه كالحًا مرة أخرى واستدار به ومضى تتبعت وقع كعب الحذاء العالى الحاد الرنين يرجع لى ويحلو. ابتسمت للرنين واستدرجته حتى جاء.

عدت به للغرفة وخلعت من عليه كل لفافاته المعطف الجلدى والقفاز والجورب الصوفى، والحذاء وقناع الألوان وطلاء عينيه ومسحت بكلتا يدى على شعره الذى انسدل طويلاً على الجسد العارى تمامًا. والدفء المحمر فى بشرة الجسد كله، فى الوجه والعنق والصدر المتسع الرحب، ونبعا الدفء يتأرجحان فوقه، ثم البطن النائم، والفخذان برزا فجأة فوق الأمواج كجانبى زورق. ابتسمت لها فابتسمت لى، وعندما قفزت فوق القارب تأرجح منتشيا ولم يطوح بى للبحر، فأخذت أبحر.

لم تكن عارية تلك التى تنام فى الذاكرة. كانت تبدو فى قميص شفاف، والوشى حول الصدر كرغوة الأمواج التى ولدتها. كانت مطرقة وخيطا القميص غائصان فى الكتفين المشتعلتين. ولايمكن التمييز بين الخيوط الحريريه الشفافة والكتف، ولا الثديين وشفافية القميص والظلال ترقد فى الفجوات العطشى. تاركة ما يبرز يلمع بنداء ساطع لا يصمت فى نقطتين صغيرتين جداً لا تكفان عن الحركة فى العينين المطرقتين بشرود. ونقطة تحس بها تشمك فوق أرنبة أنفها، وبقعتين داميتين ترتجفان فى الشفاه، وضوء يصعد فوق العنق الطويل، ثم الضوء المتدفق الطاغى الذى يبرز فى العتمة المستكنة خلف استدارة الثديين. استلقيت متمطياً بجوارها فظلت مطرقة كما هى، متظاهرة بأنها لا ترانى. كانت الشيطانة بجانبى فى الفراش، يسعى لحم كل منا لاهثًا نحو الآخر، ورغم ذلك تتصنع الشرود. أخذتها فى صدرى فاشتعلت بارتجاف رغبة الشفاه وتموجت تحت صدرى وحول عنقى، وذقنى وصدغى. والرغبة تستعر فى حركة النقطتين المضيئتين فى عينيها. وغاصت أصابعى فى شعرها وأخذت رأسها بجانب عنقى، فتأوهت وأغمضت عينيها وانزلقت بقوة بى فوق البحر.

واستحالت الغرفة حولى متخمة بجسد الرغبة. منتفخة وباردة الجلد حتى انها كانت تلسعنى. وكنت متلاشياً فى ركن الفراش الملوث تحتها، والجليد يلوث رأس الرغبة المقطوع. وأحدق مقطوع النفس فيما يصفعنى هكذا فى الفراش، وأرزح تحته. ورغبة الحط على شاطئ تطير لتسقط فجأة على جبل جليدى تدمر تحتى قاع القارب ويبرز من تحت حطامه. وأبتلع ريقى البارد وأنا أحيا فى أسف وسط كل حطام القوارب التى لا تظل تحتى.

قمت وغادرت الغرفة وحملت أقدامي على السير. كان حلقي شديد البرودة والجفاف وأيضًا الرؤى. وخطواتي تسقط في التقليد المهترئ ووقع الخطوات المعادة يذكرني بوقع الخطى الجنائزية. ولم أحس بالرعب وأنا أتدحرج تاركًا خلفي لا شئ. و"أناي" تتبعني ككلب غريب يصرخ أو يصمت في الطرقات دون صاحب. ويأتي الليل و"أناي" مازالت دون صاحب. وتهمد الطرقات وتتركني فتعتم جثث البيوت أكثر. وتجتاحني الريح فأعوي. وفي زمجرة الريح يختنق العواء ثم يموت. وأحس بأناي ترتجف فأهرع صوب فتحات البيوت المعتمة وأقف إزاءها رافعا رأسي محدقا في الخط الحاد المعتم بين ضلفتي الباب. والذي لا يتسع مضيئًا أبدا ليسمح لي بالدخول، ثم أخفض رأسي نحو الأرض وأواصل السير بعيدا عن الحوائط المكومة على داخلها. وتظل مندفعة تحتي: خطى عرجاء فقدت القدرة على السير بعد أن فقدت الرغبة.

وأكتظ داخلي بالغثيان وأنا أرى سقوط الليل يحاصر العمر ببطء، والظلمة تضرب في وجه العالم. والطرقات تمتد أمام عرجي مستقيمة بلا معنى. مليئة بعلامات المرور الباهتة، والإشارات المطفأة من أعوام بعيدة. وروث الكائنات الجاف. ورماد الاحتراق ورائحة السير القذرة التي تنبعث من جوف النعال السائرة. وكثيرا ما أصادف تحت قدمي فجأة دما متخثرا لما يجف بجوار بقايا ساق إنسانية مهشمة. أو فقرات عنق ملتصقة بأرض الطريق.

والطريق بعيد عن كل ما يحدث، راقد وممتد حتى انقطاعه فجأة عند البحر، ليس ثمة بادرة خضوع. وليس سوى التضخم المهين إزاء الأقدام التي تلاشيها أرض الطريق الصخرية.. وسوف يجئ يوم تتلاشى فيه القدم تمامًا، وأسقط فإذا بقدمي ملتويتين وصغيرتين إلى حد الغرابة. وألتفت للزرقة الصدئة البادية! أكثر أنانية من الطريق وأكثر قسوة من الأبواب الموصدة. ولم يكن ثمة سبيل إلى التوقف بعد أن غدا مجرد السير مهينا. أن نكتشف العبث ونصر على تأديته شئ مخز، أكثر خزيا من الذي يملك الجرأة على التوقف، التداعي، السقوط، ملامسة الأرض، بسط راحتيه وساقيه والسكون. الكف عن الادعاء. ذلك أجدى من الاستغراق في الوهم، والركض

فى السير اللامجدى. مواصلة السير قد تكون ستاراً فى وجه الخارج، تنحية للشماتة أو الاتهام. انتصابا لرسم النصر أمام وجه الآخر، لكنه انتصاب خاو، وخزى الداخل أكثر طغيانا ووجودا من كل ما عداه، قد ينتفى الخارج بانتفاء اهتمامنا له، لكن الداخل ما يبقى دائمًا، حتى فى الليل، سجننا الذى ننام ونستيقظ فيه. ولا مفر منه، غطاؤنا الذى لو تعرينا منه ما وجدنا غطاء آخر سواه. ابتسمت لداخلى. رأيت البسمة فى وجهه شاحبة كما لو أننى أنتزعها من فوق حبل المشنقة. ونفضت قدمى من الخطى وعدت له. هالنى أن العودة لم تكن تبعث على التفاؤل أبدا . كانت عودة لمواجهة الأشلاء المنتظرة. رأيت الرياح القاسية وهى تبدأ فى التحرك من بعيد. ثم رأيتها وهى تهب بقافلة الجياد المظلمة والصفير والجموح. ثم اشتدت تجتاحنى، ليس فى الشوارع هذه المرة، لكن فوق أرضى العارية.

وعانيت البرودة التى أخذت تصحو فى الداخل.. تغمر أطرافى كلها وما حولى بل حتى الزمن الذى سقطت فيه. وإحساس لم يكن مفضوحًا هكذا، يطفو من صميمى كفقاعة باردة من صميم بصقة طوح بها مجنون فوق أرض صخرية ملساء، حتى تنفد فى البرودة الأبدية التى تأسرها وتظل معها حتى تلاشيها.

وجاهدت فى أن أذكر أيامًا لم أكن فيها بصقة لم أتذكر شيئًا. فقط رأيت الماضى كله عاريا ممتدا أمام تذكرى له، صخر معتم أملس. وتتكوم حاملة نفسها فوقه، بصقتى. أدركت أننى أتذكر. لست فاقدا للذاكرة كما توهمت. بل اننى أتذكر اللاشئ جيدا الخواء المهين المنتصب فوق سطح البصقة كخيمة أسر. وجاهدت لكى أفقد هذه اللعنة.

انحنت السترة البيضاء أمامى. حدقت فى الرأس الذى تحمله وسألت:

– شيئًا ينسى البصقة كونها.

قطب جبينه وعاد يصنع انحناءة ثانية.

– ألا تفهم؟

ظل يفتح فمه ويغلقه عدة مرات حتى تقصد العرق من تحت الشعر. أدرت المقعد عنه وشرعت فى القيام، لكنى رأيت أكثر من سترة بيضاء تجوس خلال المناضد وتأتى نحوى وجباههم كلها مقطبة، قلت لهم فلم يفهموا. تعالت أصواتهم حولى فأحسست بالارتباك حدقت بسخط فى كراتهم السوداء التى تتأرجح فوق بياض السترات ثم سقطت فى المقعد يائسا.

سمعت عزف كعب حذاء عال إلى جوارى ثم أحسست براحة يد خفيفة تحتضن كتفى وكفها الأخرى تشير لهم بالابتعاد، فأحنوا رءوسهم ومضوا. راعنى ما حدث فرفعت وجهى إلى الجذع اللامع حتى الأثداء الرحبة المتوهجة والعنق الطويل والوجه العالى جداً وشفتاها تنبسان بالشراب. كان رائعا احتضان كفها لكتفى ووقوفها إلى جوارى هكذا وانصراف السترات البيضاء. تناولت يدها فى راحتى فانحنى وجهها على وجهى. نظرت فى عينيها فابتسمت وربّتت على كتفى وجلست إلى جوارى وهى لا تكف عن اللهاث والنظر لى.

ضغطت على يدها بكلتا راحتى فوق رخام المنضدة. كان باردا له شكل عاصفة تتموج، ويدها الصغيرة تحت يدى اللتين لم تكفا عن التشبث بها.

– كان فظيعا ألا يفهموا رغبتى.

– المصيبة أنهم دائمًا لا يفهمون.

– وكيف جئت إذا ؟

– لا أدرى.

– لكنك جئت وأنت تلهثين.

– اننا لا نلهث دائمًا لأننا نعرف ما نلهث وراءه. نادرا ما يحدث أن نجرى وراء شئ نراه أمامنا.

– لكننى جئت وأنت رغبتى.

- كان على أن أغادر المدينة بالأمس، وكنت ستجيئ دون أن تجدنى.

- وما الذى حدث ؟

- رأيت البحر.

- لكن البحر يوجد دائمًا.

- لم أر البحر إلا بالأمس.

- ولماذا بقيت ؟.

- لأننى رأيتنى أصرخ بالأمس فوق الساحل.

- ولماذا لم تكفى عن الصراخ ؟.

- بودى لو أكف، لكنه لا يكف هو.

- من ؟

رأيت شفاهها تزرق وترتجف بشدة فأدرت رأسى نحو النافذة. كانت دائرة الشمس تنزلق فى البحر، والأمواج المعتمة تتوحش وتبدأ ركضها الليلى المريع.

- لقد أتى.

- نعم. لقد أتى.

وساد الصمت.

- أأنت خائف ؟.

- يدك ترتجف بعنف.

- ووجهك شاحب جداً.

- وأنت تحاولين ألا تصرخى.

وعاد الصمت.

- لا تخف.

- وكيف وأنا أسمعه ؟

- بأن نحاول أن نسمع صوتا آخر.

- طوال عمرى وأنا لم أسمع صوتًا غيره.

وتوحش فى صمتنا صوته.

- ربما يصمت ؟.

- لكنه لم يصمت أبدا .

- لكنه ربما يصمت.

- متى ؟!.

واستحالت شراعًا لصق كتفى. غص حلقى وأنا أتطلع إليها فضغطت يدها يدى بقوة وشدتنى واستدارت بى فتوارى البحر خلف ظهرينا، وتعالى الإيقاع إلى جوارى. لم يكن يجئ ويولى بعيداً هذه المرة. كان قريبًا مستعراً موازيًا لوقع قدمى. وكان غريباً أن يحدث ذلك التوافق الذى لم أكن لأتوقعه وأن لم يغادر أحلامى النائية. وأحيانا كان يتلاشى صوت خطاى تماماً. كانت الرغبة فى سماع وقع قدميها صافياً تحتلنى: أن أصغى وهو يأتى. طوال عمرى وأنا أحلم بالخطوات التى ستأتى لكننى لم أتصور أنها ستأتى بغتة هكذا بالصوت الذى يتصاعد وأراه يوجد سامقا وسط الخواء، مزيلًا بخطاه ريح البحر. ومثيراً فى رغبتى الدفء حتى أننى بدأت أحس بها تتحرك بقوة على شوارع المدينة. والشوارع سكرى. والسكر شربته البيوت ففقدت المدينة صحوها القيصرى. والأبواب السكرى جعلت تفتح على الشوارع، تقترب يارقص الخطى النائية، يا جمرة فحم الغابات البعيدة، يا ألق الماسات أسلك على شعاعها المسالك المحرمة، وأدب فى الدغل الأخضر، أعانق صدور الرغبات الحية، وأجوس خلال جذوع الزمن

الراقد خلفك. أترنح على فمك الصامت، وأتلمس بكلتا يدى باب الكهف الآتى: على باب كهفى يا ليل سأسهر، فاغسل زجاج مصابيحك المطفأة وعلقها الليلة!

وبدت رغبتى كما لو كانت ستولد الليلة ولها رأس. وتذكرت الرياح ووجه البحر، فاجتاحتنى الرغبة فى رؤية وجه رغبتى. ثم سكنت تماماً ساقطاً فى حزن ثقيل لما رأيت كل هذا الفرح المجنون الأعمى الذى يجعل رغبتى تتعثر ثانية بلهفتها للعثور على ما تتوقع أنه سيكون رأسها.

والتفت إليها وتمتمت بشفاهى التى أدركت أنها لابد ستكون شاحبة لأنها كانت ترتجف.

أخشى أن تكونى قد تعبت ؟

طرفت عيناها فتوقف البريق ثم عاد يسطع مرة أخرى، ابتسمت لها فاشتد سطوع البريق لى وهى تهز رأسها:

هل تعبت ؟

- أبدا.

- لكن الطريق طويل.

ابتسمت وهى تتلقف أصابعى وتسطع فى عينى:

- أنت تقطعه كل يوم.

- إنه طريقى.

ولو.

يبدو أن الإنسان ينسى كل شئ عن طريقه بعد ما يسقط فيه. أتعرفين؟. يخيل لى أننا لا نسير أبداً. نحن نسقط أقدامنا فى الطريق، وبعد ذلك يتولى هو كل شئ. تماماً كالذى يسقط يديه فى قبضتى شرطى ليقتاده إلى السجن.

كانت تتأملنى وأنا أتكلم. والابتسامة تغيض تحت وقع الكلمات. بعد أن صمت. كان وجهها يبدو كما لو لم تعبره طوال عمره بسمة واحدة. بدا قاحلًا لدرجة الفزع. ولما حدقت فى عينيها ولم يسطع شئ، شددت أصابعى على أصابعها وحاولت أن أبتسم لها. شدت هى الأخرى على أصابعى وظلت تحتويها فى صمت. رجولتها..

– لا داعى لأن نظل فى الحزن.

– للأسف، أننا لا نستطيع الفرار.

– ذلك كان قبل أن يجد كل منا الآخر.

– اذا فأنت فرح بى ؟

ونبتت البسمة ونورت فى وجهها ثانية وهى تعتصر أصابعى بفرح ظل يسطع شاسعًا أمامنا حتى دخلنا الغرفة. وأغلقت بيدها الباب علينا فلم أعد أراها.

وعندما تنفستها فى العتمة أحسست بالغرفة حولى وهى تستحيل إلى امرأة، كانت رائحتها قوية، ولم تكن رائحة زهور من نوع واحد. بل رائحة حقل تتنفس فيه أعداد هائلة من الزهور المختلفة، تتمطى متراخية على الأشياء الساكنة تجعلها تفقد جمودها وتبدأ فى التقلب والحركة والتنفس لتحيطنى بها. ورأيت الأثاث لأول مرة يلمع فى العتمة. لمعاناً قاسيًا كما لو كان ينطلق من عينين تعانيان الرغبة التى تتقافز أمام رغبة الرغبة وهى تقترب، ويقترب نوالها. وأحاطت ظهرى بذراعها وهى تسألنى:

أأنت تحيا دائمًا وحدك ؟

تذكرت كل ماضٍ وقلت لها: نعم.

منذ زمن طويل ؟

عدت أتذكر ولما لم أجد شيئًا مخالفا أجبتها:

نعم منذ ولدت.

صعدت ذراعها إلى كتفى وراحة يدها تتفتح بكل اتساعها لتضمنى إليها ثم قبلت جانب جبهتى.

أحسست باستدارتى شفتيها وهما تلسعان جبهتى فأحسست بساقها تلتصق لدرجة اللسع بساقى، والدفء ينتشر غزيراً من خلال ساقها وحضنها إلى أرجاء جسدى، وعندما أدارت رأسى لها وقبلتنى فى فمى أحسست بالرغبة تقفز وتنتصب وتبدأ فى المواء. ولما أعادت قبلتها لفمى لفترة أطول احتويت رأسها بين ذراعى وهمست لها بخجل:

إننى أريدك.

ضحِكَت.

وخفت العتمة ولم تعد ستاراً يمنع الرؤية عندما كانت تتعرى. وكنت أرقبها وأنا أرتجف وهى منحنية تخلع حذاءها، ثم تعرى ركبتيها وتبدأ تفرد ذراعيها نازعة فردتى الجورب القاتم الطويل. ورأيت ساقها بكاملها وهى تنطلق حرة فى العتمة الخفيفة. وكجمرة تشتعل كانت حية واعية وليست خجلة أبدا، بل بدت كمالوانهارمقتنى وابتسمت لحظة أن تعرت وجعلت قطع الملابس تتساقط على الفراش ببطء وتتكور فارغة ضئيلة فوق ذاتها تاركة عرياً طاغياً يتمطى وينتصب فوق الفراش، ويدير رأسه نحوى ثم يسكن لبرهة وأسمعها من فوقه تدعونى.

تنبهت فجأة إلى ملابسى التى صارت بلا معنى كملابس المهرجين. ابتعدت فى الركن جاعلا بينى وبينها مقعدا عاليا. ثم أدرت ظهرى وجعلت أخلع كل اللفائف التى أكبح بداخلها عريى. وأحس بكل قطعة من الثياب ألقى بها على المقعد بأننى أتخفف من طفوص زائفة. وعندما استدرت لاخطو نحوها، عريا لعرى، كان صوت الرغبة قد استحال صراخا دائما، وتلاشت الغرفة بكاملها ليبقى صوت الرغبة والعرى الرحب المنتظر باتساع الفراش. وصوتها المستلقى على ظهره يرفع رأسه بجدائل شعره المنسدلة الطويلة فوق الوسادة ويهتف بى: تعال !

ورأيت البحر خلفي. كانت الغرفة موصدة والزجاج الضبابى يمنع الرؤية، لكنه كان خلفي، وخلف النافذة، وخلف الغرفة كلها.

تعال!

بدأت أسمعه خلفنا. كانت الجياد تركض وصوت سنابكها يتناثر من أرض الشوارع الصخرية ليندفع فى أقواس هائلة مصطدما بزجاج النافذة. وأحسست بالخوف من أن يعود الرعب يحتلنى من كل ما يطاردنا بالعذاب، ونهرب منه صوب الكهف، لكنى سمعتها وصوتها العارى يتدثر بالإغراء والدهشة:

– لماذا لا تأتى ؟!

قفزت الرغبة عمياء تتعثر فى أشياء الغرفة. والعرى الممدود الذراعين قاهر تكتنفه الظلال لكنها لا تخفيه، بل لا تملك أن تغزوه يتمطى فى غموض يعمي والرغبة العمياء تصرخ فى وجه الصمت المستلقي بطول العمر، بأيد لا ترى أبواب الدخول. والعرى يسطع فى الظل بابتسامة عارية بلا خجل، وأبواب محطمة المزاليج، ويهتز بصوت السؤال: "لماذا لا تأتى ؟!".

وقبل أن تصرخ الرغبة فى اتجاه الصوت كان ظهرى مفتوحًا، وصوت البحر يتدفق بالرياح مجتاحًا فى موجة خاطفة بأضواء ماتت من طول ما لبثت بالقاع كل نصاعة الشاطئ القريب ثم ناكصا فى جذر وحشى. وبين المياه السوداء رأيت جسدى يسقط فى البحر ويهبط حتى أطرافى المشرعة وهى تلوح طلبًا للنجاة، "لا تخف"، سمعتها وهى تمد ذراعيها العاريتين حولى. تنفست عيناى فرأيت وجهها يحمل وجهى؛ والابتسامة العارية عادت تتدثر بالصمت تحت عينين مغمضتين، وأصابعها العشر تزحف فى خطى دافئة بحثاً عنى، وعندما تعبت رجتنى بحزن:

– قل لى من أنت حتى أدعوك باسمك.

وصك حزن شفتيها صدرى.

وجاهدت أن أذكر اسمى فما وجدت. يوما ما ألصقوا بى اسماً لا أذكره، وفيه أب لم أره حتى الآن. وعندما سألتهم عما إذا كانت لى أم أم لا، شحبت وجوههم وقالوا كلاماً لم أفهمه فآثرت الصمت، ولما أعادت السؤال سألتها بحزن أن تعطينى اسماً.

وأين اسمك ؟

فقدته لأنه لم يكن لى. كان هبة الغرباء، ولذلك لم أحبه، وهأنذا كما ترين أحيا عاريا منه.

ضمتنى أكثر وبطول جسدى شممت العطر الغائب. كان ينضح وينتشر كالمساء ببطء، ويتوهج مع الوجه الذى يعانقنى وينحنى على وجهى بخوف:

– سأسميك "حبيبى" .

لمعت "حبيبى" ناصعة البياض، والمرأة البيضاء تنشر جدائلها وتجرى حافية القدمين على الرمال الساخنة فى اتجاهى بالبحر، والصغير يزحف بفرح منحدراً من فوق الرمال نحوى فى الماء وأنا أضحك له وأقول: تعال. وضحكته تتسع لى. كان صغيراً وحلواً، أجمل من الدمى التى يلعب بها أطفال جاءهم بها آباءهم. وكنت ذاهباً إليه لكى آخذه فى الماء لنلعب معاً، عندما انحنت فوقنا نحن الاثنين وصرخت: "حبيبى" !.

وفجأة كان يتأرجح بين يديها وراحتاه الصغيرتان ملوثتان بالرمال المبتلة، ولم أكد أفهم شيئًا والمربية تسرع نحوى. ضحكت لها، وإذا بوجهى يشتعل بالألم من صفعتين وذراعى تصرخ من قرصتها. احتضنت ذراعى وأنا أتألم ونظرت فى وجهها بتساؤل تغمره الدهشة فسبتنى. احمر وجه المرأة البيضاء، نقلت الصغير على ذراع واحدة ثم مدت يدها الكبيرة البيضاء بسرعة ومسحت وجهى وأحاطتنى بها بينما تنحنى لتقبلنى. ورأيت الدموع تبرق فى عينيها فدفنت رأسى فى صدرها وانخرطت فى البكاء. كان العطر ينفذ من صدرها ويحتضن وجهى هامسا بصوت مبحوح: يا "حبيبى"!. وراحة يدها تضغط بحنو على ذراعى وتزيل الألم. لكن المربية مدت يديها كحدأة وانتزعتنى من المرأة البيضاء والصغير يضحك لى. شدتنى ثم أمرتنا، أنا وكل

الأولاد بالابتعاد، وتقدمتنا فسرنا وراءها، بعيداً عن العطر حتى افتقدته. لكنه عاد الليلة يحتضن رأسى وصدرى وذراعى وساقى، وابتسمت لها بحزن فقبلتنى فى فمى ونشرت أذرعتها حولى ورجتنى أن أسميها: "حبيبى". تأملت عينيها طويلاً وهما تومضان لى والفرح تائه فى سمائهما أيضًا. شعرت بالأسف لها وابتسمت. ضمتنى وظلت ترمقنى طويلا ثم أنهالت تقبلنى فوق جبينى، وفوق خدى، وفى فمى، وعيونها تسبح فى الدموع وترجونى أن أضحك أن أفرح أن آخذها أن أعطيها أن أتمنى أية أمنية.

وتفتحت بين يدى: رحبة الصدر والأبواب والطرقات، وصوتها الساكن فى حضنى ينسكب فى داخلى بالنداء من كل أرجائها، وظلالها الرطبة الساكنة أمام الأبواب والمنعطفات وفى الطريق إلى الداخل، تعطى وعداً بانتهاء التخبط الذى كاد أن يحرق العمر فى التجوال أملًا فى العثور. واحتويتها بين ذراعى بجسارة راغبًا فى الولوج إلى حيث أجد وجهًا لرغبتى المقطوعة الرأس. والتفتت بعنقها نحوى بسرعة وطوحت بجدائلها فانهمرت الخصلات الطويلة تغرق رأسى بظلال ينزلق فوقها الضوء ولما جعلت ملامح كل منا تلتصق وتغوص بملامح الآخر، وأخذنا نتبادل التنفس أدركنا بتغير إيقاع النبض أن كلًا منا بدأ ينساب دافعًا كيانه نحو ذاته فى الآخر.

من أين أنت ؟

ومن أين أنت ؟

وكيف لم تلتق الخطى منذ السقوط فى الوجود ؟!.

ولكم ضلت الخطى منذ الأيام الأولى البعيدة: كنا كثيرين جداً، ونحيا معًا، وكنا متقاربين فى العمر ونرتدى أردية من نوع واحد. ونتناول طعامًا واحداً. والتى تنام فى غرفة مجاورة بالليل هى التى بدأت تعلمنا الكتابة بالنهار. وكنا أبرياء حتى عرفنا الكتابة، أبرياء فى أسرتنا، وغرفنا، والفناء محاط بسور عال به باب لا يفتح إلا عندما يسمحون لنا بالخروج إلى البحر.

ولم نكن نعترض على أى شئ لأنه لم يكن ثمة إحساس ضد أو مع الأشياء أو الأشخاص حتى جاءتنا المربية متجهمة، كما لو كانت مرغمة على ما سوف تقوم به من

أجلنا، وأخذت تخط على لوح خشبى أسود خطوطًا جيرية. كانت الخطوط فى أول الأمر تأخذ أشكالًا مسلية، شكل العصى، والآنية. والحبال الملتوية والسياط المعقودة الطرف، والسكاكين ومناجل الحصاد. وأمرتنا أن نصيح وراءها: ألف، باء... وبالليل كانت تغمرنا سعادة جديدة طارئة. وفى الأيام التالية صحنا وراءها. أم. أب. أخ. أرض. سماء. إله. كنا قد عرفنا الحروف ورددنا الكلمات، لكنا سألنا عما تعنيه الكلمات. ماطلتنا فى البداية ثم جعلت تكلمنا عن أشياء لا نفهمها. ومن المعاملة القاسية التى كانت تعاملنا بها بعد كل سؤال، أحسسنا أننا ننزع رغمًا عنا براءتنا ونفقدها ونحن لا نجد مفرًا من أن نرقب الكلمات: كيف تتكون وتوجد وما الذى تعنيه ؟

وأمسى الليل كلما جاء يخنقنى بالظلمة، وأحسست أننا مكدسون فى غرفنا خلف أبوابٍ مغلقة حتى لا نرى ما تخفيه المربية عنا. وأن النسوة اللاتى كن يمررن من تحت النوافذ ويلوحن لنا بعد ما يتوقفن قليلًا ويقذفن لنا بقطع الحلوى الصغيرة، لابد يعرفن سر تلك الكلمات.

وفى أحد الأيام جمعتنا المربية وسط الفناء ثم سارت بنا حيث الباب الذى انتظرنا أمامه حتى انفتح فرأينا الشارع والنسوة والرجال والأطفال وهم ينطلقون فى كل اتجاه ويتكلمون ويصمتون ويبكون ويضحكون ويسيرون ويتوقفون حسبما يريدون هم، وليس حسبما تريد المربية، ظللنا نسير بجوار الحائط من الخارج حتى شريط الترام، وقفنا متماسكين بالأيدى حتى مر ثم واصلنا السير حتى رأينا البحر ومشينابإزائه حتى هبطنا فوق الرمال الممتدة الناصعة. وحدث أن المرأة التى كانت تقذف لى بالحلوى من النافذة وهى تسير قبالتنا من عند موقف الترام. ثم تستريح على أحد مقاعد البحر القريبة منا ونحن نلعب، لوحت لى بيدها فذهبت ناحيتها ووقفت أمامها. فتحت حقيبة يدها وأخرجت منها قطعة كبيرة من الحلوى. تلفت حولى فوجدت المربية لاترانى. مددت يدها وأخذتها منها. قالت لى: "كلها حتى لايخطفوها منك" فبدأت آكلها ببطء. سألتنى عن اسمى فأجبتها. ابتسمت بحزن فظللت أنظر إلى حزنها وتوقفت عن الأكل. قالت لى: "كُل يا حبيبى" فعدت آكل، ولكنها أصبحت غير حلوة. نظرت لى

فدفعت بالجزء المتبقى فى فمى حتى لا تعود إلى الحزن مرة أخرى، مسحت شعرى وربتت على وقالت وهى تبتسم لى: "رُح العب معهم حتى لا تضربك". قلت لها إنها ضربتنى بالأمس. هزت رأسها بشدة وسألتنى لماذا. قلت لها لأننى لم أفهم كلمة "أمى" شحب وجهها ثم أحمر فجأة. وفتحت حقيبتها وتناولت منها المنديل ثم جعلت تمسح أنفها الصغير وبعدها مسحت عينيها بسرعة. دهشت وسألتها إن كانت تعرف أمى. قالت لى أن أمك حلوة جدًا، فسألتها أين هى؟. وهل تلبس مثلها هكذا؟ وهل معها حلوى؟. هزت رأسها نحو الأرض وعاد المنديل يمسح أنفها الصغير ثم عينيها المبتلتين بسرعة.

أرتعدت مع الصوت الذى اخترق رأسى من الخلف مناديًا على بحدة فالتفت إلى المربية ثم أدرت رأسى إليها هى قبل أن أمضى فانحنت على وقبلتنى بسرعة. وقبل أن تبتعد سألتها: بخوف: "متى ستأتى أمى" ؟. فلوحت لى وقالت إنها لابد ستأتى إليك.

وتكومنا مع غروب الشمس وعدنا نقطع الطريق فى طابور طويل حيث ننفذ من الباب الضيق إلى الفناء الكئيب إلى الغرفة والليل خلف الباب المغلق. همست للراقد بجوارى: أن "أمنا" سوف تجئ. برقت عيناه وسألنى: متى ؟؟؟ ولما سمعنا الآخرون غادروا الأسرة وتكوموا حولى فجعلت أحكى لهم عن: أمنا" التى سوف تأتى ومعها كل ما نحلم به من أشياء حلوة، ولا تضربنا أبدا وهى تكتب لنا كلمة "أمى". فرحوا كلهم، وبدأ كل منهم يحكى عما سيطلبه منها عندما تأتى لدرجة أن أخذنا أسرع عندما فتح الباب وأطلت منه المربية فسألها بفرح: هل حقا أن أمنا سوف تجئ؟ اكفهر وجهها فجأة كيوم عاصف وسألته وهى تهدده عمن قال ذلك، فأشار إلى. جريت محاولًا أن أختبئ فى الركن. لكنها جرت خلفى وانقضت على وظلت تضربنى على وجهى وعينى وفمى كثيرًا. وأصابنى الرعب والحزن وأنا أحس بالجدران خلفى جامدة لاتسمح لى بالاحتماء بها. ولم أجرؤ على البكاء إلا بعد ما خرجت وأغلقت علينا الباب. استسلمت للبكاء وأنا أدعوك يا أمى. وفى جوف الليل، وكلهم نائمون مع أحلامهم المفزعة حولى كنت أنصت تجاه البحر آملا فى سماع صوتك. لكن البحر كان يصيح بخشونة على

البعد دون أن يجعلنى أسمع صوتك، وفكرت فى أن الأبواب المغلقة هى التى تخيفك وتحول بينك وبين أن تأتى، وأن من الأجدى أن أظل أنتظرك عند البحر حتى تأتى.

وبت الليلة التالية كلها أنتظرك تحت أحد كراسى البحر حتى غلبنى النوم.

ورأيت البحر وهو حولى تمامًا بلا خوف من أى كائن أو أى حدث، ولم يكن يعذبنى التفكير فى الطعام، أو الاحتماء أو أية رغبة أخرى. كان البحر الدافئ يعطينى كل حاجتى بلا ضجة، وجسدى يتبادل والمياه التموج والفرح الساكن وفجأة أحسست بغضب البحر والأمواج تتنكر لى وتدفع بى إلى عالم مختلف. كانت قسوة قبضة طاغية تدهمنى وهى تحيطنى ثم تجذبنى بشدة نحو مواجهة الموت. صرخت والموت يندفع مع الهواء شاقًا صدرى ليبدأ حياته هو، وجسدى تؤذيه الرمال فى السكون والحركة، ولما فتحت عينى لم أر سوى دائرة الزرقة الصدئة الممتدة فوقى، وتلك الرمال القاسية تحتى، وصرخاتى تستمر ثم تنتهى ولا شئ يعيدنى للبحر الدافئ. وبدأت تلفحنى رياح البحر الباردة وتستحيل إلى سياط حول جسدى الموغل فى الضآلة والطراوة.

"ما أقسى رياح البحر الباردة !".

كنت أرتجف بها وهى ترتجف بين يدى رغم العرق الذى يغمرنا معا والعذاب يحتل ملامحها حتى اتخذ وجهها شكل العذاب، ومع ذلك لم تطلب منى أن أصمت. فقط ظلت مغمضة العينين، تجاهد فى دأب لاحتوائى بلا جدوى. سألتها أن نكف عن هذا العذاب فاحتضنت رأسى بقوة وجعلت تقبل شعرى ووجهى وكتفى هاتفة بى أن أغوص فى كل جسدها برغم أى شئ، وهى تبكى وترتجف.

"ما أقسى رياح البحر الباردة !".

شددت عليها بذراعى واحتضنتها أكثر محاولا أن أغطى كل جسدها حتى أقيها برودة الرياح التى تعربد فى داخلى، ولما لم أنجح مسحت خدى بشفتيها بامتنان صامت ثم رفعت صدرها فأحاط بعنقى تمامًا وعنقها ينحنى على، وجدائل الشعر الطويلة الساكنة تتموج لامعة حول رأسى، واستبد بى الحلم الذى انتظرت فيه أمى

تحت كرسى البحر ولم أرها إلا بعد أن أطحت بقشرتى الجامدة وتدفقت بكل ما يصخب فى داخلى من عطش نحو النبع الذى أريده.

هويت مرتميًا فوق جفاف الرمال، وأخذت أزحف ملتمسًا فى الجدب آثار القدمين اللتين قذفتا بى بجوار البحر وتاهتا عنى وفى الطريق كان العالم قاسى اللفح والأصوات التى تنطلق باليأس من استعادة ما فقدته فى الجدب المحيط تعلو وتنخفض قبلما يزحف من داخلهم الموت ويلتف حولهم ويضاجعهم فيرتعدون بعنف ثم يصمتون وعيونهم الميتة تملؤها الدهشة التى يمتصها الرماد ببرود. وكلما ترامت إلى الصرخات أسرعت بالزحف متلمسًا الأثر المفقود وسط جفاف لا يحد. لو كان خارجى فقط لما أحسست كل هذا الرعب، ولكنه يجتاح داخلى بسطوة جليد يجمد أى نبت يرغب فى الحياة. وأعضائى تكاد تتوقف عن الحركة، لكنى زحفت للمرة الأخيرة دافعًا بكل ما تبقى فى من قوة حتى صعدت المرتفع الأخير وبدأت أهوى ببطء نحو ما بدا حافلا بأضواء الموجات العذبة وسط الجفاف. وصوتها العميق ينفذ إلى داخلى بنداء دائب لتائه عنها تدعوه بحنين يحترق، وأنا أهوى نحوها مسرعا، باسطا ذراعى نحو صوت النبع.

احتضنته وفتحت فمى الجاف، ولما ذقت الطعم المفقود الموغل فى القدم، أخذت أعب بلا توقف وهى تبتسم لى، وفمى يطبق على شفاه الثدى الضخم الذى تكور وأخذ يتسع أمام عينى الملتصقتين به حتى أصبح هو كل ما يمكننى أن أراه، وأحسست بأذرعها وهى تحتضن رأسى وأصابعها تتخلل شعرى وتضغط رأسى نحوها بكل ما يستطيع الصدر أن يطيقه، وذقنها يتحسس رأسى ويحكم إلصاقها بالثدى الذى تضخم وبدا كما لو أن خيوطًا من الدفء الحلو تتدفق لى منه، ومع ارتعاشتها الهائلة سمعتها من خلال الثدى وهى تنتحب وتقبلنى. ومددت ذراعى ببطئ وشددت الغطاء فوق جسدها من أسفل حتى أعلى البطن. ضحكت بخفوت ففرحت. استحالت ليلة صيف فاستحلت قمرًا يجمعنا الفرح وحركة التنفس الذى بدأ ينتظم منا معا كما لو كان صادرًا من كائن واحد، وغصت خلف الرغبة وإذا بى للمرة الأولى أرى وجه

رغبتى، يتخايل مهتزًا قادمًا، وهى تدفع نحوى بالموجات وتهدهدنى بفرح كأنه يأتيها منى، وجسدها باتساع الموجات وأنا أستسلم له وأزحف محتميا بداخله انقطع العطش وأحسست كم هى قادرة، ممتدة حولى باتساع شاسع لا تحده الزرقة الدائرة التى بدأت تزهر فوقنا. وأنها أمن لا ينفد، وإننى فى صدرها أملك كل شئ، وأعرف فجأة أسرار الكلمات المجهولة التى استحالت أمامى باهرة الوضوح كنهار حقيقى. ومع الرى، كان زمنى يتفجر بالاخضرار وكل جدب الماضى ينتفى تحت التدفق الطويل المستمر، والخضرة تزحف أكثر إسراعًا من أية رياح نارية، وداخلى يسطع بالأضواء كلها، وبهجة لا تحد وأنا أرى كل هذا العالم الجديد. وأستلقى مسندا ظهرى على الصدر الأم مواجها العالم بلا خوف. وتطلعت إلى وجهها الكبير الذى يطل على ورأسى الصغير يستريح على صدرها العريض ورجوتها. "الطرقات متوحشة يا أماه ولا أحد غيرك مد لى يدا فى هذا الليل، ودعانى لاحتمى بحوائطه، وكلهم أنكروك لما سألتهم عنك". وقبلتها: "لاتتركينى ثانية يا أماه !".

ابتسمت وقبلتنى كثيرًا وهى تقطع القبلات بغمغمة حبيبة: "أبدا !".

وسكنت وفوقنا يرف صمت هادئ، ملئ بالأشياء الحلوة التى تعطى وتؤخذ بلا حاجة إلى سؤالها. واستمر ذلك كالحلم الذى تطالع فيه وجها كالأبد. ثم إذا بكل ذلك يتوقف فجأة فى سقوط مفاجئ، والصمت يطلق صرخة فوق الخضرة التى أخذت تحترق، والنبع الذى غاضت منه المياه فجأة وفوهته تتلظى تحت الجفاف الحارق. ورأيت أمى وهى متشحة بالسواد، وأنا أتأرجح على ذراعيها وهى تجرى، والرعب يشلنى فلا أكاد أصرخ. والغبار يتصاعد من تحت فرارنا، وغبارًا هائلًا يأتى من بعيد، مليئًا بالوعيد والصيحات، والانفجارات التى تجئ من ناحية البحر، والسنابك الغازية من الصحارى المجدبة، واللهيب يتساقط من كل صوب، وعيناها اللتان تجريان بى تعكسان كل ما يحدث وتتأرجحان بفزع وأنا أسقط فجأة من بين يديها إلى جانب أحد كراسى البحر، وهى لا تملك حتى أن تقبلنى للمرة الأخيرة.

وسمعت حفيف ثوبها الأسود يبتعد، وكل ما كانت تخّاف منه يطبق على كل شبر حولى وبدأت أختنق بالهزيمة، وأحسست بعرينا المهان وأنا أصارع الاختناق. وتلقيت فى ذهول صامت ما صفعنى:

كنا هامدين والبرودة رغم العرق تبدأ فى الزحف إلى جلدنا، ثم تستمر فى زحفها إلى الداخل، وجسدها الذى كنت قد شددت الغطاء عليه حتى منتصفه قد عاد عاريا يثير الرثاء. والثدى متدل بلون قاتم، وعلامتان زرقاوان تحيطان بحلمته التى ذبلت. وعندما رفعت وجهى إلى وجهها هزنى ما وجهت به، وملامحها القاتمة متراخية فى اليأس. كانت خطوطاً على الرمال المبتلة قد دهمتها موجة وانحسرت، وخطان من الدموع ما زالا لما يجفا بعد وعيناها معلقتان بلا مبالاة على نافذة البحر. وليس فى داخلهما أى أمل فى شئ ولا خوف من شئ، كما لو كانتا قد سقطتا فجأة ومنذ لحظات فى الدهشة، لهذا العالم.

وأطلت التحديق حيث كانت تشخص ببصرها، والنافذة الضيقة تبدو كما لو أحدثتها ضربات سكين فى الجدار، فاضحة فى وجودها كجرح غائر ومفاجئ امتد حتى النخاع، وموجات البحر فى حركتها اللا مجدية تقوم بدور غامض تحت الدائرة الصدئة. والدخان البعيد علامة قصيرة العمر على رحلة وهمية تحدث دائماً محفوفة فى كل لحظة بمخاطر الهزيمة، وظللت هكذا حتى استحالت النافذة إلى رسم.

أدرت وجهى بتساؤل نحوها. أمالت وجهها نحوى والتقت عيوننا ببطء أكثر وسكنت جميعها فى لحظة واحدة ولم نجرؤ فبدأت عيوننا تهتز وتتأجج وتصنع دوائر لا تلتقى. ظل ذلك حتى اصطادت عيناى عينيها وظلتا ممسكتين بهما. حاولت عيناها أن تطيرا لكنهما يئستا، فاستسلمتا لى. ظللت محدقا فيهما محاولا أن أعثر على خطأ واحد ولم تكن ثمة أخطاء. ليس سوى ما يهتز من بقايا الوهم ويجف ويتطاير فاقدا حتى ذكرى وجوده وتحت كل ذلك لا يرقد فى القاع سوى الرمال البُنية والمياه المالحة تعوم فى حفرتين فى وجهها قريبتين من عينى.

وفكرت أن يوماً ما ستهب الرياح من ناحية البحر حاملة أطناناً من العواصف الترابية وتظل تدوم وتردم مياهها ومياهى، ولا يبقى من كل عذاباتنا سوى مخلفات

العذاب: الجماجم التى تمارس نوعًا من الحكمة: ألا تفصح هى الأخرى عن أى شئ مما كان يجرى فى هذا الزمن الذى نفقد فيه كل ما كنا نملكه، بل حتى ما لا نملكه، تاركة الحيرة إزاء الصمت، لكنه صمت يصفع صمتًا آخر يحيط بنا وتولد فى جوفه كل عذاباتنا دون أن يأبه لها، أو حتى يذكرها.

وشدنى استلقاؤها فى كل هذه التعاسة التى تحيط بنا، وندركها فى صمت إلى أن أشد على وجهى ابتسامة لها. طرفت عيناها ولم تبتسم. عدت وشددت الغطاء عليها حتى الوسط، ثم مددت راحتى واحتضنت رأسها وقبلت الشعر الطويل المهشم المتناثر حول الوجه، والعطر مازال يحلق فوقه كذكرى بعيدة تقاوم. قبلت جبينها وخديها والثدى، حيث ترقد العلامات الزرقاء القاسية، فانتفضت وشرعت تنتحب. احتضنتها أكثر وهى ترتجف، وخيط من النيران يزحف من داخلى إلى غصة فى حلقى وهى ضئيلة بين ذراعى لاتملك إلا ثديين فارغين، ونافذة كانت ومازالت قدرها التعس وإن لم تكن أكثر تعاسة من أداتى التى لا تجدى إزاء كل هذه التعاسة التى أخوض فيها.

وسحقنى الإدراك بأن لا شئ يحيا بهذا النهار. لما سطع فجأة رأيت رغبتى وهى تظلل عينيها ثم تيأس فتغمضها وتظل تنكمش حتى تدخل تمامًا فى الظل بجانب الأعمدة الوهمية التى تتداعى للسقوط فى أية لحظة. أدركت الرغبة ذلك فلم تجاهد لكى تدفع ما سوف يحدث، وكمنت فى الظل تواجه النهار الكاذب بكل ما يحفل به من أصوات ليست لأصحابها، وحركة لا تجهل الشلل الذى يتمدد فيها فتتراقص ليطوح بها العجز على أحد جانبى الطريق الذى لم يكن له وجود، والذى صنعته خطانا التائهة فبدأ من لا شئ لينتهى عند اللاشئ ورغبات أخرى غيرها تولد بجوار البحر وتعود لتموت بجوار البحر أيضا وكل ما يحدث بين الميلاد والموت هو ما يغلفه هذا النهار المزيف بالحركة والألوان والأصوات. وشيئًا فشيئًا آثرت رغبتى الصمت. كثيرًا ما كنا نتحدث قبل ذلك عن المخاوف والأحلام، ما عانيناه بالأمس وما سنصنعه غدًا، وكثيرًا ما دفعت بى الرغبة للتجوال فى شوارع المدينة محاولا أن أعثر على طريق لا ينتهى فى البحر حيث كانت الرياح تثير عذابها، بحثًا عن مرآة. وهأنذا أجدها تكمن فى النهاية

بجوار أعمدتى فى الظل، وكل المرايا تبدو بجوارها كذكرى مهشمة أزاحتها إلى جوار الأعمدة.

وفى يوم سألتنى الرغبة أين ذهبت المرأة. لم أجد جوابا. فأنا نفسى لا أعرف أين ذهبت، ولا من أين جاءت، ولا حتى من كانت، وأشارت نحو دائرة الزرقة الصدئة التى لا يعرف أحد منذ متى وهى مغرقة فى هذا الصمت والصدأ. ولم أفهم إشارتها. ابتسمت وقالت لى أتتذكر يوم أزهرت؟. قلت لها إننى أذكر، ولم أزد جعلت البسمة تشحب شيئًا فشيئًا. فهمت أنها تود لو تزهر ثانية. وخشيت أن أقول لها أنها طوال عمرها هكذا، وإنها لم تزهر مطلقا وأن داخلنا. هو الذى ازهر بالوهم، ولكنها كانت كما أعرفها. تكره الكلام، وتكتفى بما تراه فقط.

وحدث فجأة أن انهارت منى، تمددت بجوار الأعمدة وأخذت تهذى. وتحكى بصوت عال عن الماضى، وتكلمت كثيرًا عن المجد الذى تذكره فى صباها وسط أهلها، وصرخت ثم انخرطت طويلًا فى البكاء. وفجأة امتدت راحتاها بأصابعها العجفاء وقبضت على ذراعى بعنف فولاذى وهتفت:

أمى. اذهب وائتنى بها قبلما أموت.

ذهلت، وخشيت أن تكون قد فقدت وعيها فى النهاية لتطلب منى هذا المطلب الغريب. قلت لها أننى لا أعرف أين هى فصرخت فى وجهى ثم عادت تنتحب وتقبل يدى بينما تغمغم:

– سأموت الليلة. ولا أريد أن يحدث هذا دون أن أراها.

وجعلت شفاهها ترتجف دون أن تنطق. أحسست بالحزن يساقط ثقيلًا فى داخلى، ولم أملك أن أتكلم وحتى لو استطعت فما كنت سأتكلم. يبدو أننى أصبحت مثلها مجبرًا على أن أؤمن بألا جدوى من الكلمات. وعرفت كم من العذاب يواجه الإنسان عندما يواجه ما لا تحتويه الكلمات. وفكرت طويلًا ودمرتنى كل الطرق اللامجدية وفى النهاية انخرطت أنا الآخر فى البكاء. انحنيت لأحتويها فى حضنى فى لحظتها الأخيرة

وأقبلها، لكنى انتبهت إلى أنها مقطوعة الرأس، ولذلك لم أجد وجهها لأقبله. وألح الصوت العديم الملامح، وخرجت عارى القدمين إلى شوارع المدينة التى تنتهى جميعها فى البحر وتظللها زرقة صدئة صامتة، وبيوتها كلها موصدة الأبواب، تنفث البرودة كمدينة موتى. ظللت أقطعها من البحر إلى البحر فى كل الاتجاهات وحنينى يطغى إليها، والخوف من أن تموت يجعلنى أسرع بالخطى اللامجدية حتى غمرنى العرق وجف حلقى وبدأت أحترق فى جحيم العطش المستعر وأنا أفكر بصعوبة: "أما أنها ماتت منذ زمن طويل، وربما بعد الميلاد مباشرة، أو أنها تضاجع هذه الليلة واحداً ككل الذين ضاجعتهم طوال عمرها وهو يكذب عليها الآن فى كل ما يقوله عما سوف يمنحهامن مجد".

وارتعشت خطاى، وسقطت عند البحر. يا (   ):

ماذا تبقى منا، حتى تجتاحه بتدميرك ؟!

(مارس ١٩٦٧، ١٩٦٨)

(نشرت بمجلة المجلة القاهرية سبتمبر ١٩٦٩)

عطشى لماء البحر

(إلي: م : لقد هربت من الموت، بعد ما فقدت حبك، لأحبك هذا الحب المريع الذى أفقدك فيه للأبد إذ تتحولين عنى وتسكنين الكلمات) .

م.ا. مبروك

لابد أن تنفخ فيك امرأة من روحها كى تصبح رجلاً.

ميشيليه

(أيها البحر ترفق بالتى يطوقونها بنباتات الصبار فتقطع الصحراء ملقية بنفسها إليك. ولا تفزع من وحدتك كلما ساطك العطش ناهشًا صدرها . فالآن تجلس أيها البحر عارية على الصخرة الشرقية تنتظرك فى نهاية الليل بعينين مضيئتين، عاقدة على ركبتيها صرة المخاوف كلها . فانزل، وترفق، وادفع بالسفن بعيداً حتى لا يلمح أشرعتها القراصنة فيداهمونكم عرايا إلا من الحب الذى يطيح بكل الأقنعة ولايطيق ثقل الرداء!)

* * *

هل نجرؤ _أمنا التى فى الأرض _أن نناديك الآن ؟

يخجل فمنا ولا يخرج الصوت. أما القلب فلا ندرى ما الذى ينهمك فيه بعيداً عنا . متحاشيا المرور فى الطرق التى تفضى إليك، فإلى هذا الحد صار يخجل هذا المطعون بجرح بالغ منا معًا والآنية التى حملناها وانتظرناك كيما تصبِّين لنا فيها ماء نشربه عدنا بها فارغة إذ صببت لنا بدلاً من الماء عطشا ، فأى لظى وقد شربناه كله؟ وأى أمل

لنا لو استمر الأمر على هذا النحو دون أن تتبدل هذه الأبواب الصخرية وظل هذا الحائط الهائل يوازى خطونا حتى يرهقنا السير فنبدأ فى الركض ثم نجرى حتى تتحول صفرة الحائط إلى الأبيض الذى يغشى بصرنا حتى الدكنة المفاجئة التى تجرنا إلى مدخل نرمى بأجسادنا عليه فننزلق على صخر البازلت الداكن مقطوعًا على هيئة باب ومنحوتًا فوقه حارس برأس أفعى. أما من سبيل للداخل ؟

أننا نعرف أنك لم تغادريه أبداً، هذا الذى تتوارين فيه وأرواحنا تحوم ضارية بجناحيها من فوقك.

كيف هو الآن! أى انحائه أكثر خضرة وأيها أكثر موتًا، وهل اضطرمت النار فيه أم أن ألسنتها لم تشتبك بعد بحطب الحريق. وأى ليل رائق، بدلًا من هذه الشمس الصدئة المائلة على نهار كاذب، سيفرش الأرض وقبة السماء لتتوافد وتملؤها النجوم التى ستجئ فرحة لتتربع ساكنة ملتفة بأذيالها المضيئة. وأى الأصوت ستتعالى عندما سنقفز من فوق هذا الحائط الذى نعتليه الآن. وأى صمت مروع سنسمعه فنصرخ فرحًا، هذا الذى سيرمقنا أشبه بنمر ساكن. صمت يسبق الموت والحياة وفعل الحب بينما نشرع فى تصويب أمشاط أقدامنا العارية على أرضنا التى تتجدد فتجتاحها الحشائش المنداة الطالعة بخضرة فادحة من تحت أوراق بنية تعرت منها الأشجار التى سبق أن شق ثوبها الخريف. وفى هذا الصمت نشكل بالهواء الذى تبكى حناجرنا وهو يغادرها، رغباتنا فى سماع أصواتنا حتى الغناء منتظرين للصوت: هذا الذى يجيئنا من أربعين فصلًا: ساقت علينا الريح، غسلتنا بالمطر، واجتاحتنا بالربيع، وملأت بطوننا جوعًا وخايلتنا بالثمار، لكنها لم تأتنا أبدًا بهذا الصوت الذى نسمع حفيف تسلله من بيننا قافزًا هذا السور الحجرى ونازلا خفيفًا وماكرًا، وحاملًا بثقة خنجراً. الشمس شهقت أول ما رأته والهواء ضحك إذ أصيب بجرح أما الحرس ففزعوا وغشيت عيونهم، لكن البحر تغير صوته وها أنت تسمعه ينهض عاليًا شاهرًا سلاحه الذى يبرق

بالشمس التى تضحك، ويزرقُّ بالظل الذى يختنق، يحبو صاعداً متسلقًا أوائل الحروف ممسكًا بعذاب وفرح بأول كلمة ليغنيها فيشرع للهواء شفاه تنفتح وتستدير دون أن يصدر عنها صوت مكتمل و أطراف أصابع تفتح عيونها وترى إذ تحط كرءوس طير تهبط برفق على جسد أم اغتالتها كل المسافات التى قطعتها عطشًا. الآن يختبئ هو تحت الثدى، ومن دم القلب المفتوح ينسل صوت الحياة المهددة والنور يرف على حدود آخر الليل، ويلوح فى العينين اللتين تتطلعان مطاردتين.

أطرحى تعبك الآن، وأريحى على ساعدى رأسك ودعينى أبلل طرف ثوبى بريقى وأمسح عن جبينك والثديين قشرة الدم. أطرحى تعبك فها هو الموت يرتد عنك فى أشواكه كقنفذ خائف وانفض أنت الغبار عنك وأطرح أغلال الساعدين وأخلع الرداء الممزق والتمس منها حياة جديدة لك من تحت همود السطح، من: الظلمة الناعمة، فالنعومة اللزجة، فاللزوجة الساخنة، فالسخونة الدامية، فالدم الفواح، فالأذان المتلمس كضرير، فالعماء الملون، فالألوان المحلقة، فالشمس الوليدة المجنحة على الماء الجارى حاراً راغبًا فى الخروج لك منبثقًا من عين مردومة لزمن طويل. وتندفعين فى البكاء والشهقات: "حمداً لك هذا أنت تأتينى فى صحرائى وتجرى على بدنى كله ماءك!" أرفع بين راحتى وجهك المنكفئ أمامى مهتزاً بجسدك كله ثم يعود منكفئًا على راحتى فيتألق شق قمر يضئ بدقته البالغة ليل الغرفة وليل الشعر. كنت قد قلت لك إننى أحبه هكذا، ومددت أصابعى إلى خصلاته الثقيلة حتى اختبأت بها راحتى. رفعت ذراعيك العاريتين المضيئتين، وبراحتيك وأصابعك الثمانى أزحت الخصلات على جنب حتى اتضح المفرق دقيقًا مستقيماُ فقبلتها على جنبيك، مغمض العينين، فى دفء الشمس البعيدة على حزم الحطب فوق سطحنا، وبدون مرآة فى يدها، تشد بمشطتها الخشبية جانبًا من شعرها الذى حلت ضفيرتيه وحددت منتصفه بأطراف أصابع يدها اليسرى بينما تغمض عينيها من الألم: هذا هو الوجه الذى كان غطاء رأسك الأسود أيام ردائك الأسود فى سنى ترملك السوداء يهيل عليه خصلات الشعر ويضل الآخرين عن ضوئه.

لكنك الآن تفتحين لى الطريق إليك بيديك فأنحنى بشفتى على جبينك الذى استراح عليهما وسكن. وإذ خفت ضجة تنفسنا وأصوات الدماء، سكنت الريح فى فروع الأشجار وانحنت على ملامح وجهك الذى شرع فى الصحو والتفتح على وجهى: أنا الآن طفلك الذى فاجأه نداء البحر فخلع الرداء وألقى بنفسه إليه ثم خرج جارياً إليك حتى وقف متقطع الأنفاس فرحًا أمامك. وبينما تتأملينني وأنا داخل فى الظلمة بعريي عليك، ينهض عريك لى فيتسع ضوء، وتريدينني فتأخذ الأضواء تتخطفني وتسمعني غناءها مبحوحًا وخافتًا كالماء – ظامئين إليه – يأتى تسبقه رشرشاته حاملاً عصفه المتوهج إذ ينهض فى الفضاء نازلاً بالرى لحر جسدى وصحراء جسدك التى تفتح أشداقها بينما ترفع الساقين لتخلى الطريق بصرخات حادة وقصيرة مهللة للداخل: أدخل فانقض داخلًا وبيننا تتلقينني بعنف تصرخين شاخصة إلى تحت ما بيننا: الدم! أتصايح فرحًا وهو يندفع ويعلو بموجاته الثقيلة الدافئة سيقاننا وجذع كل منا: "لم الخوف وهذا هو الذى به حلمت، وهأنذا أراه". تديرين جانبًا وجهك الذى تغطيه فوضى جدائلك خافية فرحك بخجل: "آكل هذا الفرح وتخجلين"؟ وأعاود الدخول فيعاود الدم انبثاقه وتفزعين فأضحك غارقًا فى الدهشة وأنا أجذبك إلى: "أمن دمنا نخجل" ؟! وتندفعين خجلة وضاحكة إلىَّ بينما يغمرنا معًا كلما دخلت وخرجت حتى كانت المرة السابعة إذ نهضت وعاودت أخذك عنوة فخشيت خشية هائلة وصرخت بفرح والأرض تهتز فيدوم الدم وتستسلمين راسخة بينما تلفين ذراعيك حول عنقى وشعرى وتتشبث أصابعك العشر فى عنف لم يكن لك أبداً من قبل والدم ينداح تحتنا. لم نكن نتبادل الكلمات أو الإصغاء، بل جسدانا يصدر عنهما الصوت ويسمعانه: الآن، هل صرت رَجُلِك؟ خبأت رأسك بصدرى. رجلى فقط؟! لا أعرف كيف حدث ونهضت على بديل كل الرجال يدخل على إذ دخلت أنت فقبلت شعرك: وأنا لا أعرف كيف حدث أن أتيتك فرفعت بديلة كل النساء جذعها العارى طارحة شعرها المحلول للوراء. قبلت وجهى فخبأت رأسى بصدرك وتغطينا معًا بجدائل شعرك فلفنا بظلام يبرق: أترين إلى أى مدى صار حبنا؟

هززت رأسكِ مشيرة بأهدابك الطوال لآخر حدود البحر الطالع للسموات: أترى مدى له؟ شهقت إذ ركضت عيناى فغشيهما نوره الساطع يرتعش بعيداً، فناديتك بخوف. احتضنتني فصرخت مرتجفا: لمَّ تركتني؟ ضممتني في حضنك أكثر وكدت أموت من البرد فتطلعت إليك. نظرتني واتسعت عيناك إذ وقعت في حيرة طائر أطبق عليه فخ: أنا معك وأبداً لن أتركك فلم كل هذا الخوف؟ اندفعت في النحيب لائذا بصدرك فتعالت الدقات وإذ التفت بحذر ناحيته رأيته: ساطعًا يفر مجتاحًا المدى في طرفة عين ويوشك أن يغيب صرخت وأنا ألوذ بك بينما تقبلين وجهي بين راحتيك: مالك؟ بكيت حتى هدأت تحت وجهك المنحني على، ورأسي في حجرك بينما تمسحين بأصابعك عن وجهي الدموع وارتجاف شفتي وشعرك لا يكف عن الانهمار ليحيط بوجهي، وعيناك قلقتان وتقاومان البكاء بابتسامات ترتعش وقبلات قصيرة وأنا لا أقدر أن أرفع ذراعي لأشير إلى ما أراه يتربص بي وبك: شفتاك يرتعش خط التقائهما الدقيق الشاحب أمامي ولا تجرؤان أن تبوحا بينما يشهرون السلاح بين يدي وجذعك. ارفعي إلى وجهك بينما أكلمك: هل كان يليق بكِ – أيتها الأم المقدسة – بعد ما غلقت الأبواب والنوافذ، وأسقطنا عن جسدينا الرداء واجتاز كل منا أسوار الآخر ونزل بأرضه فأكل من فاكهته وشرب من مائه وبناره تدفأ، أن تروعيني هكذا فأرتعدت إذ تتبدين أمامي بشفاه لا تعرفني بينما أحيطك بذراعي وفوق رأسينا تضرب روحك بجناحيها وأمد إليها يدى فتنتهي نهايات أصابعي عند حدود ضوء الجسد، وملامحك التي استراحت بذقنها على كتفي وقبلت كل رعشات صحوها في التقائنا، تعود برأسها للوراء وتنظرني الآن كما لو من خلف زجاج، ولا ترسل نظراتها لي، بل لما لا أراه. أشدك إلى فتضغطين وجنتك وجدائلك بكتفي وحضن عنقي بقوة وتسكنين. أمسح شعرك وأرفع بين راحتي وجهك وأديره لي فتدور النظرة نحوي وتقف على مسافة وتواجهني بصمتها الذي يحلق عاليًا، وعيناك تهبط رموشهما الطويلة السوداء كستائر

ثقيلة تنسدل دفعة واحدة أنحنى عليك هــازًا كتفيك فتتكاتـف الـرمـوش، وأبـدًا لا ترفعينهما فى عينى، بل تقومين ببطء لتستديرى بظهر عار يغادرنى ويبتعد ومازالت واضحة عليه حمرة أصابعى، وبظهرى تستعر نيران أظافرك التى حفرت مكانها كعشرة سياط. وفى مرآة الزمن التى تستطيل لا أرى سوى ظهرك الذى يمضى وأخشى أن أظل وحتى الموت أراه وأعض شفتى يائسًا: فهل يستدير إلى آتيا، ولو فى الحد الفاصل بين تخوم الحياة وتخوم الموت وجهك وعلى وجهى ينحنى فأموت بفم حى يشب إليك ويبقى دافئًا ومتفتحًا بندى قبلتك كدهشة متوردة أبدًا؟. وهل لى أن أعرف يومًا ما الذى أفزعك إلى هذا الحد فجفلت متراجعة للوراء لا تصدقين نفسك ولا كل الذين يتطلعون إليك بحب، تقتلعين الورود من ردائك ولون الورود من أظافر أصابع القدمين والراحتين، ووهج الشمس من قرطك، ودكنة الليل من شعرك وصليل جريان النهر من صوتك، والمواجهة من نهوض صدرك وعلو جبهتك لتنكفئى لائذة بقبو، متشحة بالسواد، مولية للأبواب التى تفضى إلى من يحبونك ظهرك، وتسقطين فى الأيام التى تستحيل إلى ليال، والفصول إلى خريف، والفرح إلى ذكريات تنأى وتتلاشى مالئة رؤاك بذبول الوردة وانطفاء النجم، والموت الذى يزحف ويقترب حتى يوشك أن يلمسك. أما من قدرة على تلقى كل هذا الفرح الذى عشته بنفسك أيام كنا نلتقى سرًا؟ عن نفسى فإننى مستعد لمواجهة الموت ذاته شرط أن تواجهى بحبنا الأعداء والأصدقاء إذ مامعنى أن تصرى على إخفائه وكلهم يعرفون أنه ينمو بيننا، ولا أنت ولا أنا بقادرين أن نخفى ما يفعله بنا. هذا الذى أطاح بصوابك فأطحت أيامها بكل أرديتك وأغطية رأسك المتربة، مطوحة بجدائلك السود اللامعة فى الهواء، ورشقت فى شعرك، على جنب، وردة كبيرة، وأقمت رموشك عاليًا وتطلعت لىَّ وللطريق وللدنيا التى انتبهت إليها مرة أخرى فوجدتها. فكيف أصدق إذا أنك غير قادرة على الفرح والأزمنة الحية القادمة لكلينا وليس أمامها لتجرفه سوى ما يخنق أرواحنا من نفايات الأزمنة الماضية، وذكريات موتانا.

أم أنك تفعلين ما فعلته من قبل، يوم تسللت أنا بعيداً عنكم يوم البحر، حتى السور الواطئ واعتليته قلقاً حتى الموت على ما بيني وبينك: كنت تجلسين معهم وكانت أصواتهم هى التى تجيئنى كلما انخفض صوت ارتطام الموج بالصخور، ولم أكن مولياً وجهى ناحيتكم، إلا أننى كنت أصغى جيداً، حتى عندما يعلو صوت البحر، ربما أميز بينهم صوتك. كان الماء يظلم إذ يغادره على اتساع البحر كله ضوء الشمس التى صارت برتقالية وبدأت تنحدر صوب الماء، وكنت أحس بالبرد وباليتم معًا، والماء يعتم بعد ما فقد ضوءه الذهبى، رفعت رأسى المنكفئ بلهفة وأدرته: أهو أنت؟. كان شعرك يتطاير بأجنحة عديدة وأنت تقفين بهدوء غريب خلفى مباشرة، وتطلين علىَّ من أعلى: "لم تبتعد عنا وتجلس وحدك؟" اختنقت فلم أستطع الرد فتأملتنى صامتة. قلت أول ما استطعت النطق: لماذا كل هذه القسوة طوال اليوم؟ ظللت فى وقفتك تتأملينني فى صمت وذراعاك متشابكتان على صدرك، وبهدوء أكثر: أولاً، امسح دموعك حتى لايروها!. بدأت بشعرى حتى لا ينتبهوا وأنا أفعل ثم مررت براحة يدى على وجنتى وعينى. ظللت صامتة ثم تكلمت وأنت تتأملين الشمس التى غرق نصفها ولم يبق منها سوى ما يرتجف فوق حد السيف: "ستعرف عندما تكبر أنك، وفى أوقات كثيرة، ستكون مجبراً على أن تواجه الذين يتعقبونك بوجه آخر. وجه لا يخصك أبداً، كما لو أن ما يوشك أن يدمرك لا وجود له". وأومأت بنصف التفاته من رأسك: "علينا ألا نجعلهم يلاحظون أى شئ بيننا". وكانوا قد ابتعدوا عنا وانهمكوا فى اللعب وتعالى ضجيجهم، وعلى وجهك يستقر قناع بشفاه تنبس بالكلمات دون أن يبدو من هيئتك أنك تتكلمين، وملامحك – أقصد ملامح القناع – راسخة وحجرية كما لو أنك لم يسبق لك أبداً أن تطلعت إلىَّ بحب. وكنت أواجهك كمن – فجأة – يواجه صحراء لم يقطعها من قبل وعليه أن يجتازها، وكان على أن أبذل جهداً خارقًا كى أصدق أن تجاهلك لى طوال اليوم لم يكن تجاهلًا أبداً. ورجوتك: أيمكن أ، تجلسى معى؟". ظللت واقفة وهززت رأسك وأنت تحذريننى بصوت خافت: "أنهم وراءنا" انكفأت مغتاظًا أُحدق فى

الموجات وهى تخبط أحجار السور. كان الماء مطوقًا بالصخور وبسور الكورنيش، أما أنا وأنت فكنا مطوقين تمامًا بهم. بحثت فى جيوبى عن علبة السجائر حتى وجدتها، وأطفأ الارتباك وهواء البحر أكثر من عود ثقاب وأنا أحاول أن أشعل لك سيجارتك. ضغطت على راحتى المحيطتين بالعود المطفأ كما لو أنك تسرقين الكحل من العيون، فأشعلت سيجارتى أولاً ثم قدمتها لك وأخذت سيجارتك وأشعلتها لى. شرعت فى التدخين بعمق بينما تمرين بأصبعك الصغيرة على شفتيك الرقيقتين والشاحبتين كعادتك عندما تستغرقين فى التفكير والتفت إلى : "أنت لم تزل طفلاً!" هززت رأسى متسائلاً. أقول لك: "أنت تذكر الأحداث الماضية. عندما انفجرت وفاجأتنا جميعًا، نحن وهم. أيامها فقدوا هم صوابهم من الرعب ليومين كاملين، وأول ما استعادوا سيطرتهم شرعوا بذعر يطلقون الرصاص على من يصادفونه فى الشوارع بعد أن عاد الناس لبيوتهم، ويوجهون الضربات دون تمييز. وكنا فى وقت متأخر من الليل وفى وضع بالغ الصعوبة وأصوات الرصاص تصلنا من بعيد عندما توالى الخبط على الباب بإلحاح أزعجنا جميعًا. أدخلت الأولاد والبنات إلى حجرة نومى إذكان على أن افتح لهم وأنا أبدو هادئة. وجهوا لى الأسئلة فسمعتها وببطء شديد كنت أرد عليهم كما ترد ست بيت على رجال لا تعرفهم. قلبوا الكتب وبعض الأشياء بسرعة ونظر من يأمرهم نحوى طويلا فسترت فتحة صدرى براحة يدى وأنا أضم الياقة بارتباك حول عنقى وأنظر للأرض. ناداهم فرجعوا إليه. انصرف وتبعوه فأغلقت الباب بإحكام ودخلت حجرة نومى أطمئنهم إلى أنهم ذهبوا. تصور ما الذى يمكن أن يحدث لو تصرفت بأى شكل آخر!".

تأملتك وأحسست أن شفتى ترتعشان وأنا أرقب شفتيك بامتنان عميق وبرغبة فى تقبيلهما وتقبيل وجهك كله ويديك، فإذا هما ترتعدان ووجهك الشاحب أيضًا وعيناك ترجواننى أن أقدر ماتعانينه من أجلى، وفى اللحظة التى كدت فيها أن أمسك بيدك

المأخوذة إلى جانبك جاءت وفاجأتنا فرفعت ذراعك عالياً مشيرة للغروب وأنت تحاولين أن تكتمى صرختك: هل رأيتها؟ "لقد كان جمالها غير معقول وهى تغرب!" وأحطت كلاً من كتفيك براحتيك وأنت ترتعدين وتكلمينها فى حنان بالغ: " ألا تحسين البرد؟" خلعت سترتى الخفيفة ومددت بها يدى لكى تضعيها على كتفيك، لكنك وأنت تقاومين الارتجاف أخذتها ومددت بها يدك للابنة. ضحكت وهى تلتفت لى وتشير للسترة: "ألا ترى أنها واسعة جداً؟!" ابتسمت لها وأنا أنتبه إلى مرحها وأن شعرها مفروق من المنتصف مثلك بينما كانت ترد السترة لك. فردت أصابعك التى سكنت واستراحت على السترة لبرهة ثم رددتها إلى.

طوحتها على كتفى وأنا أرفع ساقى وأستدير هابطًا من فوق السور وأسألك أن نمضى فوراً لأن البرودة صارت شديدة بالنسبة لك. لوحت لهم فجاءوا إلينا وتحلقوا حولك. وبدلًا من أن أنتزعك من بينهم كما أنتزع وردة محاطة بغصون محتشدة بالشوك كان على أن أتحمل وأتركك ماضيًا وحيداً فى طريق سيطول بى ثم يدور من الخلف قاطعًا حارات عديدة لكى أطلع لك. لكنك اليوم لم تفتحى لى الباب، بل تركت الابنة هى التى تفتح وتجيئين إلى مخبئة جسمك فى ثياب، وقدميك فى حذاء بقفل، وتقبضين على المنديل الصغير بيديك كأنما تقبضين على كيانك كله بينما تدارين عينيك برموش مسدلة طوال الوقت فى جلستك الصارمة واضعة ساقًا على ساق ومحيطة نفسك بسور الصين العظيم. وأنا بروح عارية لا تكف عن الاندفاع والتحليق فوقك، أجاهد كى أدارى ارتعاشات يدى بوضعهما تحت إبطى أو التشبث بمسندى المقعد وأنا أتكلم حتى أفقد صوتى، وأنت صامتة طول الوقت وعندما تشرعين فى الكلام تشرعين، بضربة واحدة، فى الإجهاز على: "لن نستطيع أن نستمر ولابد أن نفترق" ثم تميلين قليلاً بوجهك للناحية الأخرى وتغرسين أهدابك، كما لو أنها خناجر، فى وبر السجادة. بينما تسوى أصابعك وبينها سيجارة اشتعلت مما قبلها، ثوبك المحبوك على فخذيك فأصعق

شاخصًا لك راغبًا أن أضـمك كلك فى يد واحدة، ثم أكور قبـضتى الأخرى وأرفـعها عاليًا ثم أهوى عليك وبضـربة واحدة أقسمك، كرمـانة، إلى نصـفين علنى أرى وأفـهم بوضـوح قاطع مـاذا بداخلك، لكنك وأنت على بعد ذرا ع واحد تحلقين أبعد من حلم لم أكد أستيقظ حتى استحال على أن أستعيده.

كان الوقت متـأخرًا جدًا وأنت تقاومـين أية مـحاولة للاقتراب أو النـفاذ إليك، بل حتى أن تصلك كلمـاتى، والنظرات التى كنت أثبتها على كيانك كنت تتـحاشينها فصمت ورأسى يسقط منى مـائلًا على ظهر المقعد ولا أملك قدرة على النهوض أكثر مما تملك جثة رجل حـز عنقـه توا. ولم تفـعلى أكثر من ضـم صـدرك بذراعيك بحـزم، وعلى أن أصـــدق - ولا أعرف حتى الآن كيف يكون ذلك - أنك كما تقولين لم تعودى تحملى لى حبًا.

كنا عاريين عندما اختبـأنا فى ليل شعرك وانزلقنا بنعومة للنوم حتى فزعت على الظلمة المطبقة تخفق فوقنا باتسـا ع السموات كجناحى خفاش وهـم يندفعون نحـونا بالسـلاسل تصطك فى أيديهم بعنف لتسقط أصـواتـهـا على عرينا فـأصـرخ لائذًا بك: "ضـمينى" لكنهم كسروا الباب فقـفزت هاربًا بك، ومـواصـلا الجرى عـاريًا وأنا أدفعك أمامى عارية حتى وجدنا بابًا فى الناحية الأخرى من الطريق فـاندفعت إليه وصـرخت عليك لتلحقى بى وجعلت أخبطه بجسدى ورأسى لكنى انكسرت كعصـى وارتددت للوراء أثر نهش أسنان حادة وانغراز ناب فى ذراعى. انـخلع فكى من الألم وهممت أن أصـرخ لكن يدى هـى التى صـرخت وأنا أتلوى باكـيًا ملتفتًا للخلف فـأصطدم برأسك منكفئًا على رسـغى وأسنانك هـى التى تواصل النهش فـى لحـمى. لم أحـتـمل أن تكونـى أنت فـصـرخت بألـم لا يطاق ولم يخـرج الصـوت. سقطت أرتعد فى البرودة والظلمـة حـتى صـحوت بجسد يغمره العرق وبعينين مليئتين بالدمـوع وحلق شديد الجفـاف أفكر فى التى تركتنى يدحرجنى الليل للنهار والنهار الليل وحيدًا كفاكهة مرة.

سحبت يدى برعب ونهضت أرتجف بعيداً عن حد النصل الذى ظل طوال الليالى الماضية ينفجر عليه الوهج ويتلوى كأفعى تتسلل إلىَّ وأغلقت الباب خلفى وتلمست طريقى فى الظلمة التى بدأت تخلى الطريق والفضاء لزرقة تضئ واجهات البيوت والأرض الصاعدة بى حتى البحر:

أهدأ. أنت ترتعد فى هذا الصباح البارد ولما تدخل المعركة بعد، كيف ستدخلها إذا دون أن تحكم السيطرة على أطرافك. أنت تفكر فيها طويلاً، تراهن بحياتك على حبها لك، وتخشى حتى الموت أن تفقدها ويرهقك هذا الانتظار على أبوابها التى لايمكنك أن تتيقن إذا ما كانت مفتوحة على اتساعها أم مغلقة بإحكام ولن يتأتى لك ذلك قبل أن ترفع ذراعك وصوتك وتبدأ بكل قوتك الطرق "من ماء البحر، هل ستخرجين جارية إلىَّ لترتمى إلى جانبى، أنا المنهك؟ وأوشكت أن تغتاله الطرق، فنستلقى فى ظل الأشجار التى سيجتاح البرتقال سماءها الخضراء، والشمس التى ستدفئ جسدينا العاريين المبتلين سيلمع ذهب استدارتها كنصف برتقالة ناضجة مقسومة بيننا وتصب جمالها فى عينيك التى مازالت تثقل أهدابها القطرات ثم نجرى نازلين الماء لنغير طعم ريقنا بعد الجرعات المالحة عندما سنتعانق فى صمت تحت سقف الماء العالى المضاء مبهورين بالشمس التى ستنزل إلينا عارية فتفتح خياشيمها وتمتد لها زعانف، وفوق رأسينا تسبح!" وإذ يتبدد الطرق يحلق الصمت من جديد فتختنق بالبكاء وتستيقظ رغباتك كلها مفجرة الصخب فى الدماء التى اجتاحت كل شرايينك فاتحة فى أنحائك جبهات متعددة تختلط الصيحات فيها بالطلقات بالهتافات بالصرخات والفرار ثم معاودة الهجوم الأخير وأنت لا تتمالك نفسك: أصدى ذلك أم الصوت من جديد؟".

اتئد وضم جفنيك، كبوابتين عليك أن تغلقهما فى مواجهة جيوش العدو لتعيد ترتيب قواتك ولا تفقد صوابك لو شعرت بالخوف، أنت تدرك ما عليك أن تتحمله حتى

تنتصر وما عليك أن تخسره حتى لا تخسر الحرب ذاتها، فما من حرب يمكن كسبها دون أن تخاض حتى نهايتها ودون أن تكون مستعداً لعديد من الخسائر، لكن عليك ألا تحارب وأنت مثقل بصور الهزيمة. يجب أن تتجدد دائمًا رؤاك عن انتصارك كحق وحيد. تلك الرؤى ستمنحك القدرة على أن ترى أدق التفاصيل والسبل لكى تطوق العدو من كل جانب. وستفتح أيها العاشق عينيك على اتساعهما مبهوراً بما يتحقق أخيراً: العدو يتجمع ويواجهك فى الناحية الأخرى، مسلحًا بكامل أسلحته، مقفلًا على نفسه الأبواب والقلاع التى ورثها عن كل أعدائك محتميًا بأسواره وبأقوى سلاح يقيه منك: عداؤه.مستعرضًا كل الحيل التى لا يكف عن اتخاذها ليعبر لك عن لا مبالاته بك، كما لو أنك رداء بال مزقة وأبعده عن جسده. لكن أية حمى تلك التى ستجتاحك وتتوجك بورودها عندما ستنقض عليه كى تجرده من أرضه ومن سمائه، مجتاحاً كعاصفة كل أبوابه واستحكاماته رافعًا فوق رأسه العارى المنكس وشاحك المضمخ بعطر دمائك إذ جاءك مهزومًا وعاريًا وجميلاً كأجمل ما فى هذا العالم: مجرداً من عدائه ورافعاً ذراعيه إلى أعلى براحتين مفتوحتين وعليك أن تناله كفاكهة نضجت وتوشك أن تسقط وعليك وهى بين الغصن والأرض أن تتلقفها.

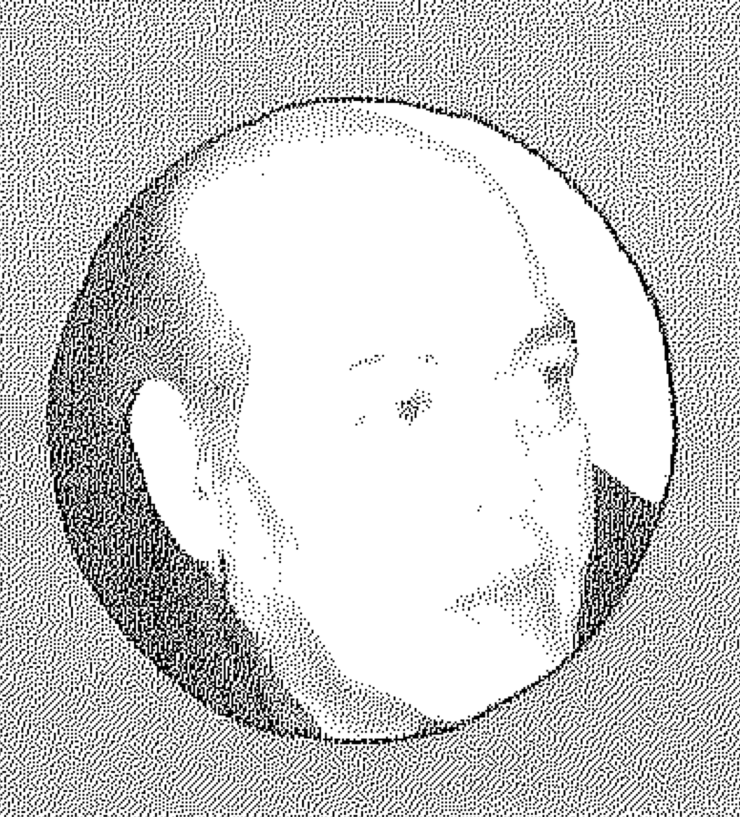
قم أيها العاشق الذى اكتملت جرأته وأحط صوتك براحتيك اللتين زغرد فيهما الدم عندما نالتا الثمرة وازرق فيهما عندما فقدتا كل شئ. قم ودفئهما بصوتك وانطلق بجوادك ليعزف بأربعة حوافر إيقاعات جديدة تحتدم على الجلد المشدود للطرقات منادياً فيها، تترك كل ما وراءها وأن تجتاز بسرعة دروبها الخانقة وتسرع فى مناداة بعضها والخروج للساحات. إلى ياقواد جيشى يا من لم تدخلوا الحرب من أزمنة طويلة، فما من سموات لنا دون أن نضرب فى الهواء بأجنحة ممتدة على آخرها، افتحوا أبواب الأسطبلات المقفلة على الجياد، وليجرد الفرسان سيوفهم التى علاها الصدأ، وليحكم المشاة ربط أحذيتهم البالية ولنسكت جوعنا ببدء الصيام الكبير،

وعطشنا بملء زمزمياتنا بماء البحر، ولتسلك دماؤنا طرقًا مغايرة لتلك التى قبعت فيها بتراخى الحيوانات المجترة ولتتعلم القفز عاليًا كأمواج بحر تقضم لجام شواطئها وتندفع مجتاحة شوارع المدن المفتوحة توا، كنيران ترفع أمجادها عاليًا بحرق كل ما يقاومها كالربيع يعرف جيداً تحت غطاء الوجه الشاحب للأرض طريقه، نافضًا شحوب الموت بخطى الحياة التى سيزين بها وجه الأرض ويقيم كمحب من أطلال ما أحبه أقاليم ومدن جديدة بوابات، وساحات، ونوافذ، وقباب، وأبراج عالية لاعتلائها ورؤية العالم المأخوذ بما نفعله نحن العاشقون الذين ألتهبت حلوقهم وحناجرهم بكل هذا العطش، إذ نمد خناجرنا ونفك من أحزمتنا كؤوسًا حجرية ونرفعها عاليا ونحن نصلى: "أمنا التى فى الأرض" ولم يزل عالقًا بها ملح ماء البحر تحت سماء آخر الليل التى ستتفتح وتتحول حول الكؤوس الحجرية إلى سماء تتورد، فسماء ذهبية، فسماء مشتعلة وتنفذ من خلال حجر الكؤوسن بجمال لم يكن لها من قبل، سبع سماوات كاملة!

الإسكندرية (مارس – يوليو ١٩٧٩)


(نشرت بمجلة الفكر المعاصر القاهرية، الصادرة عن دار الفكر المعاصر ١٩٨٠)

المراجعة اللغوية : خالد محمد محمد حسين



محمد إبراهيم مبروك

ولد في أول يناير عام ١٩٤٣
بقرية طملاي - مركز منوف المنوفية - مصر
ليسانس آداب - قسم التاريخ - آداب الإسكندرية
احتفى به يحيى حقي ونشر له القصة القصيرة التي اشتهر بها نزف صوت صمت نصف طائر بمجلة "المجلة" المصرية في أكتوبر ١٩٦٩
انخرط في الحياة الثقافية في الستينيات فشارك في هيئة تحرير جاليري ٦٩
وشارك في تأسيس جمعية كتاب الغد ١٩٧٢
وشارك في إصدار كراسة الندم الثقافية بالإسكندرية في الثمانينيات بعد نشر أعماله القصصية في مجلات:
المجلة - جاليري ٦٩ - أدب الغد - مواقف التي كان يصدرها أدونيس والكرمل التي كان يرأسها محمود درويش
أصدر أول مجموعة قصصية له وهي:
عطشى لماء البحر عام ١٩٨٤
والطبعة الثانية سنة ١٩٩٦
ما إن قرأ مبروك قصة "ليس لدى الكولونيل من يكاتبه" حتى أصبح مسحورًا بأدب أمريكا اللاتينية فدرس اللغة الإسبانية
وترجم منها قصصًا لكل من: بولوخيس - لوجرنيس - إيزابيل الليندي - خيرأدوماريا - إيبار جونجوتيا - أورتور أوسلابيتسي و أخرين
وكلها صدرت في كتاب رص الطبول - سلسلة كتاب اليوم عدد نوفمبر ٢٠٠٧.
وقبلها كتاب وسم السيف ١٩٩٩ عن المشروع القومي للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة بمصر.
كما صدرت ترجمته لمجموعة الكاتبة المكسيكية الكبيرة إمبارو دابيلا هذه الأيام عن سلسلة الجوائز للهيئة المصرية العامة للكتاب بعنوان "حين تقطعت الأوصال" وهي أول مجموعة تصدر لها بالعربية.


المجلس
الأعلى
للثقافة